

# تَفْسِيرُ الْمَرْاعِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

استاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية  
بكلية دارالعلوم سابقا

---

المجلد السادس عشر

---

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

---

حقوق الطبع محفوظة

## الجزء السادس عشر

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### شرح المفردات

فلا تصاحبني : أى فلا تجعلنى صاحباً لك ، بلغت من لدنى عذراً : أى وجدت عذراً من قبلى ، قرية : هى أنطاكية كما روى عن ابن عباس أو الأبلّة أو الناصرة ، ولا يوثق بصحة شىء من هذا ، استطعما أهلها : أى طلبا منهم أن يطعموهما ، أن يضيّفوهما : أى يزلوهما أضيافاً ؛ يقال ضافه إذا كان له ضيفاً ، وأضافه وضيّفه : أنزله لديه ضيفاً ؛ وأصل ضاف : مال ، من قولهم ضاف المهرم عن الهدف : أى مال ، جداراً :

أى حائطا ، أن ينتقض : أى يسقط بسرعة ، وقد كثر فى كلامهم إسناد ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم كما قال :

يريد الريح صدر أبى براء ويعدل عن دماء بنى عقيل  
أقامه : أى مسحه بيده فقام كما روى عن ابن عباس ، والتأويل من آل الأمر إلى كذا : أى صار إليه ، فإذا قيل ما تأويله : أى ماصيره .

### المعنى الجملى

لا يزال الكلام متصلا فى قصص موسى والخضر عليهما السلام ، ولكن لوحظ فى تقسيم القرآن الكريم إلى أجزائه الثلاثين جانب اللفظ لاجانب المعنى ، ولذا تجد نهاية جزء وبداءة آخر حيث لا يزال الكلام فى معنى واحد لم يتم بعد كما هنا

### الإيضاح

( قال ألم أقل لك إنيك لن تستطيع معى صبرا ) زاد كلمة لك على سابقه لتشديد العتاب على رفض الوصية ، ووسمه بقلة الصبر والثبات حين تكرر منه الاستمزاز والاستكبار مع عدم الارعواء بالتذكير أول مرة .

قال البغوى : روى أن يوشع كان يقول لموسى : اذكر العهد الذى أنت عليه . ( قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبني ) أى قال موسى عليه السلام : إن سألتك عن شىء بعدها من عجب أفعالك التى أشاهدها وطلبت منك بيان حكمته ، فضلا عن المناقشة والاعتراض عليه ، فلا تجملنى لك صاحبيا .

( قد بلغت من لدنى عذرا ) أى قد بلغت الغاية التى تغدر بسببها فى فراقى ، إذ خالفتك مرة بعد أخرى ، وهذا كلام نادم أشد الندامة قد اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف .

وقد روى فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب » ، لكن أخذته من صاحبه ذمامة



(حياء وإشفاق من الدم) فقال (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا) «

(فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما) أي فانطلقا الخضر وموسى بعد المرتين الأولين حتى وصلا إلى قرية طلبا من أهلها أن يطعموهما فأبوا أن يضيفوهما ، وفي الحديث «كانوا أهل قرية لثاما بخلاء» وفي قوله (فأبوا أن يضيفوهما) دون أن يقول فأبوا أن يطعموهما - زيادة تشنيع عليهم ووصفهم بالدناءة والشح ، فإن الكريم قد يرد السائل المستطعم ولا يعاب ، ولكن لا يرد الغريب المستضيف إلا لئيم ، ألا تراهم يقولون في أهاجهم : فلان يطرد الضيف : وعن قتادة شر القرى التي لا يضاف فيها ، ولا يعرف لابن السبيل حقها .

(فوجدوا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه) أي فوجدوا في القرية حائطا مائلا مشرفا على السقوط فمسحه بيده فقام واستوى ، وكان ذلك من معجزاته .

(قال لو شئت لانتخذت عليه أجرا) أي قال موسى ذلك تحريضا للخضر وحثا له على أخذ الجغل والأجر على فعله ، لأنفاقه في ثمن الطعام والشراب وسائر مهام المعيشة .

(قال هذا فراق بيني وبينك) أي قال الخضر عليه السلام لموسى : هذا الاعتراض المتوالى منك هو سبب الفراق بيني وبينك على حسب ما شرطت على نفسك ، وإنما كان هذا سبب الفراق دون الأولين ، لأن ظاهرها منكر فكأن معذورا دون هذا ، إذ لا ينكر الإحسان إلى المسمى بل يحمده .

(سأنتنك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) أي سأخبرك بماقبة هذه الأفعال التي صدرت مني ، وهي : خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار ، وما لها خلاص السفينة من اليد الغاصبة ، وخلاص أبوي الغلام من شره مع الفوز ببذل حسن ، واستخراج اليتيمين للكنز .

وفي قوله : ( بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ) دون أن يقول بتأويل ما فعلت ،  
أو بتأويل ما رأيت ونحوهما - تعريض به عليه السلام وعتاب له .

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا  
وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْفُلَانُ فَكَانَ  
أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ  
يُبَدِّلَهُمَا رَحْمَةً خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ  
لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا  
فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ،  
وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) .

### شرح المفردات

المساكين : واحد مسكين ؛ وهو الضعيف العاجز عن الكسب لأمر في نفسه  
أو في بدنه ، يعملون في البحر ، أى يؤجرون ويكتسبون ، أعيبها : أى أجعلها  
ذات عيب بنزع ما نزعته منها ، وراءهم : أى أمامهم ؛ وهو لفظ يستعمل في الشيء  
وضده كما قال :

أليس ورأى أن أدب على العصا      فيأمن أعدائى ويسأمنى أهلى

وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ أمامهم .

خشنا : أى خفنا ، أن يرهقهما : أى يجهدهما ، طغيانا : أى مجاوزة للحدود  
الإلهية ، زكاة : أى طهارة من الذنوب ، رحما : أى رحمة كالكثر والكثرة ، عن  
أمرى : أى عن رأيى واجتهادى ، ما لم تستطع : أى لم تستطع ماضيه استطاع الذى  
أصله استطاع .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأمور التي رآها موسى عليه السلام حين صاحب الخضر ، وذكر ما كان من اعتراض موسى عليه مرة بعد أخرى ، وقد كان أعلمه من قبل أنه لا يستطيع معه صبرا ، وكان من جراء ذلك أنه فارقه ولم يستطع صحبته - أردف ذلك بتفسير ما أشكل عليه أمره ، مما ينكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر على حكمة باطنة ، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم يحكمون بناء على الظواهر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « نحن نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر » .

وأحكام هذا العالم مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة في نفس الأمر ، وهذه لا يطلع الله عليها إلا بعض خواص عباده ، ومن ثم اعترض موسى على ما رأى ولم يعلم ما آتاه الله الخضر من قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور ، ويطلع على حقائق الأشياء ، فكانت مرتبة موسى في معرفة الشرائع والأحكام بناء على الظواهر ، ومرتبة هذا العالم الوقوف على بواطن الأمور وحقائق الأشياء والاطلاع على أسرارها الكامنة .

وخلاصة المسائل الثلاث — إنه حين يتعارض ضرران يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى ، فلو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها الملك وفانت منافعها بتاتا ، ولو لم يقتل ذلك الغلام لكان بقاؤه مفسدة لوالديه في دينهم ودنياهم ، ولأن المشقة الحاصلة بإقامة الجدار أقل ضررا من سقوطه ، إذ بالسقوط كان يضيع مال أولئك الأيتام .

وجمل الأمر في ذلك — إن الله أطلع الخضر على بواطن الأشياء وحقائنها في أنفسها ، وهذا لا يمكن تعلمه إلا بتصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الجسمية ، ومن ثم قال في صفة علمه : « وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا » وموسى عليه السلام لما كملت مرتبته في علم الشريعة بعثه الله إلى هذا العالم ، ليعلمه أن كمال

المعرفة في أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليها في الواقع .

### الإيضاح

(أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيها . وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) أى أما فعلى ما فعلت بالسفينة ، فلأنها كانت لقوم ضغفاء لا يقدرّون على دفع الظلمة ، وكانوا يؤاجرونها ويكتسبون قوتهم منها ، فأردت أن أعيها بالخرق الذى خرّقه ، وكان قدامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة للاستعمال غصبا ، ويدع كل معيبة ، فعبثها لأرده عنها .

وخلاصة ذلك — إن السفينة كانت لقوم مساكين عجزة يكتسبون بها ، فأردت بما فعلت إعانتهم على ما يخافون ويعجزون عن دفعه من غصب ملك قدامهم ، من عادته غصب السفن الصالحة .

(وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) أى وأما الغلام فإنه كان كافرا وكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يجعلهما حبه على متابعتة على الكفر .

قال قتادة : قد فرح به أبواه حين ولد ، وحرّنا عليه حين قتل ، ولو بقى لكان فيه هلاكهما ، فابرض أمرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب ، وفي الحديث « لا يقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيرا له » ، وقال تعالى : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

وخلاصة ذلك — إنا علمنا أنه لو أدرك وبلغ لدعا أبويه إلى الكفر فأجاباه ودخلا معه في دينه لفرط خبهما له .  
( فأردنا أن يبدلها ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ) أى قال هذا العالم :

أرذنا أن يرزق الله هذين الأبوين ولدا يكون خيرا من هذا الولد دينا وصلاحا وأقرب عطفًا ورحمة بأبويه وبراهيما وشفقة عليهما .  
 (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك) أى إن الداعى إلى إقامة الجدار أنه كان تحته كنز ، وكان ليتين في المدينة وكان أبوهما صالحا ، فأراد الله إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتين رعاية لهما ورعاية لصلاح أبيهما ، فأمرنى بإقامة الجدار لتلك المصالح ؛ إذ لو سقط ذلك لضاع الكنز وقد كان مشرفا على السقوط .  
 (وما فعلته عن أمري) أى وما فعلت الذى رأيتنى أفعله عن رأيي ومن تلقاء نفسى ، بل فعلته عن أمر الله إياى به ، لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دماءهم لا يجوز إلا بالوحي والنص القاطع .

(ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) أى هذا الذى ذكرت لك من الأسباب التى من أجلها فعلت الأفعال التى استنكرتها ، هو بيان ما تنول إليه الأفعال التى ضقت بها ذرعا ، ولم تصبر حتى أخبرك بها ابتداء .

### تأويله

لذكر هذه القصة في الكتاب الكريم فوائد :

- (١) ألا يُعْجَب المرء بعلمه ، وألا يبادر إلى إنكار ما لا يستحسنه ، فاعمل فيه سرا لا يعرفه .
- (٢) إن فيها تأديبا لنبيه بترك طلب الاستعجال بعقوبة المشركين الذين كذبوه واستهزؤا به وبكتابه ، لأن تأويل ذلك صائر إلى هلاكهم ووارهم بالسيف في الدنيا واستحقاقهم من الله في الآخرة الجزى والعذاب الدائم .
- (٣) إن ما حدث فيها يجرى مثله كل يوم في هذه الحياة ، ألا ترى أن قتل الغلام وهو صغير لا ذنب له يشبه الطاعون الذى يهلك الأم ويفتك بها فتكا ذريعا ،

والبهائم التي تفتك بها السباع أو تأكلها الناس ولو تأمل الناس حكمة ذلك لعلموا أنهم لو بقوا على الأرض مائة عام أو نحوها ولم يموت منهم أحد لضاقت بهم الأرض ، ولما تواجوعا ، ولا كل الابن أباه ، ولا أصبحت الأرض منتنة قذرة ، وهلك الناس جميعا ، وأن أكل كواسر الطير لصغارها ليخلو الجو والأرض من الحيوان المزدحمة ، ولولا ذلك لأصبحت الأرض مضرّة بالناس والحيوان ، فاقتناصها رحمة ونعمة على الناس .  
 وأن خرق السفينة التي هي لمساكين أشبه بموت بقرة فلاح فقير بجانبه رجل غنى لم تصب بقرته بسوء ، وذلك إنما يكون لحكم لا يملكها إلا الله ، وقد يكون منها أن الفقير حين موته يخرج من هذا العالم خفيفا لا يحزنه شيء ، وأن الغنى إذا لم يهذب نفسه تكون روحه مجذوبة إلى هذا العالم متطاعة إلى ما فيه ، فيصير في حسرة حين موته .

وأن ذكر الجدار وإقامته تشير إلى كل من يرى أنه ليس أهلا للنعمة ظاهرا وقد أغدقت عليه ، فأهل هذه القرية اللؤماء الأشجاء ليسوا أهلا للإكرام .  
 وخلاصة ما قاله الخضر : إن هذه الأعمال ليست من جلس أعمال الناس بل هي من أعمال الله ، وإنما كنت واسطة فيها ، فهي تماذج تفعل ربكم في هذه الحياة .

### قصص ذي القرنين ويا جوج وسدهما

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣)  
 إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَاتَّبَعْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)  
 حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَرْبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ مُعَذِّبٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ تَتَّخِذُ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)  
 قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا (٨٧)

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا  
 يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدَهَا  
 تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا  
 بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ  
 وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ  
 إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ  
 أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي  
 بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا  
 سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ  
 عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ، وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)  
 قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَمْلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي  
 حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ  
 فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)

### شرح المفردات

ذكرا : أى نبأ مذكورا وهو القرآن ، وممكنه وممكن له ، كنصحه ونصح له :  
 أى مهد له الأسباب وجعله قادرا على التصرف فى الأرض من حيث التدبير والرأى ،  
 سببا : أى طريقا يوصله إليه من علم أو قدرة أو آلة ، حجة : أى ذات حمأة وهى  
 الطين الأسود ، حسنا : أى أمرا ذا حسن ، نكرا : أى مذكرا فظيعا ، الحسنى : أى  
 الثوبة الحسنى ، يسرا : أى سهلا ميسرا غير شاق ، سترا : أى بناء وكانوا إذا طلعت

الشمس تغوروا في المياه وإذا غربت خرجوا ، خبرا : أى علما يتعلم بظواهره وخفائيه ،  
السدن : أى الجبلين ، يفقهون : يفهمون ، خرجا : أى جُعلا من أموالنا على سبيل  
التبرع ، والخراج : ما لزمك أدائه ، بقوة : أى بما يتقوى به على المقصود من الآلات  
والناس ، ردما : أى حاجزا حصينا ، والردم : أكبر من السد وأدق يقال ثوب  
مردم : أى فيه رقاع فوق رقاع ، وزبر : واحد زبرة ( بضم فسكون ) كغرفة :  
وهي القطعة العظيمة ، والصدقين : واحد صدف ، وهو جانب الجبل ، قطرا : أى  
نحاسا مذابا وقيل رصاصا مذابا ، أن يظهرود : أى أن يعلوه ويرقوا فوقه لارتفاعه  
وملاسته ، رحمة : أى أثر رحمة ، دكاء : أى مثل دكاء وهي الناقة لاسنام لها ؛ والمراد  
بها الأرض المستوية ، حقا : أى ثابتا واقعا لا محالة ، يمجج : أى يضطرب اضطراب  
البحر ، والصور : قرن يتفخ فيه .

### المعنى الجملى

هذه القصة رابعة ثلاثة من القصص التي ذكرت في هذه السورة ، وقد قدمنا  
أن كفار مكة بعثوا إلى أهل الكتاب يطلبون إليهم ما يمتحنون به النبي صلى الله  
عليه وسلم فقالوا : سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية لا يدري ما صنعوا ،  
وعن الروح ؟ فبزلت سورة الكهف .

وقبل الشروع في تفسير هذه الآيات الكريمة لابد من بيان أمور تمس إليها  
الحاجة ، من ذو القرنين ؟ من يأجوج ومأجوج ؟ أين سد ذو القرنين ؟ .

### ذو القرنين

يرى كثير من العلماء والمؤرخين أنه هو إسكندر بن فيلبس الرومى تلميذ  
أرسطاطاليس الفيلسوف المسمى بالمعلم الأول الذى انتشرت فلسفته في الأمة الإسلامية ،  
وقد كان قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة وكان من أهل مقدونيا وحارب الفرس واستولى



على ملك دارا وتزوج ابنته ، ثم سافر إلى الهند وحارب هناك ، ثم حكم مصر وبنى الاسكندرية ؛ والدليل على ذلك أنه لم يعرف التاريخ أن أحدا من الملوك دُخِلَ العالم وسار شرقا وغربا وغلب أكثر المعمور غيره .

ويرى أبو الرِّيحَان البيروني المنجم في كتابه ( الآثار الباقية عن القرون الخالية ) أنه من حمير واسمه أبو بكر بن إفريقش ، وقد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ومرّا كُس وغيرهما ، وبنى مدينة إفريقية فسُميت القارة كلها باسمه ، وهو الذي افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما      ملكا تدين له الملوك وتسجد  
بلغ المشارق والمغرب      ينتفى أسباب ملك من كريم مرشد  
فرأى مآب الشمس عند غروبها      في عين ذى حُلب وثأط حرمد<sup>(١)</sup>  
وسمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس .

والدليل على أنه حميرى أن الأذواء إنما يعرفون في بلاد حمير دون بلاد اليونان ، وهو من الدولة الحميرية التي حكمت من سنة ١١٥ ق م إلى ٥٥٢ ب م من الطبقة الثانية منها ، وماوكها يسمون التابعة واحدهم تبع ( بضم التاء وتشديد الباء ) .

## يأجوج ومأجوج

يأجوج : هم التتر ، ومأجوج : هم المغول ، وأصاهما من أب واحد يسمى ( ترك ) وكانوا يسكنون الجزء الشمالى من آسيا ، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غربا بما يلى بلاد التركستان .

وقد ذكر مؤرخو العرب والإفرنج أن هذه الأمم كانت تغير في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها ، فكثيرا ما أفسدوا فى الأرض ، ودمروا كثيرا من الأمم ، فمنهم الأمم المتوحشة التي انحدرت من الحضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت إلى أوروبا

(١) الحلب : الطين . والثأط : الحماة . والحرمد : الأسود .

في العهد القديم كأمة التحيت والسمريان والهون ، وكثيرا ما أغاروا على بلاد الصين وآسيا الغربية التي كانت مقر الأنبياء .

ثم لم يزلوا في حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن النبوة ، إلى أن ظهر فيهم الداهية الرحالة (تموجين) الذي لقب نفسه (جنكيزخان - ملك العالم) بلغة المغول ؛ فخرج في أوائل القرن السابع من الهجرة من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى ، فأخضع الصين الشمالية أولا ، ثم ذهب إلى البلاد الإسلامية فأخضع السلطان قطب الدين بن أرميلان من الملوك السلجوقية ملك خوارزم ، وفعل بهذه الدولة من الفظائع ما لم يسمع بمثله في التاريخ .

ولما مات جنكيزخان قام مقامه ابنه (أقطاي) وأغار ابن أخيه (باتو) على بلاد الروس سنة ٧٢٣ هـ ودمر بولنيا وبلاد المجر وأحرق وخرّب .

وبعد أن مات أقطاي قام مقامه (جالوك) فحارب الروم وألزم ملكها دفع الجزية ثم مات (جالوك) فقام مقامه ابن أخيه (منجو) فكلف أخويه (كيلاي) و(هولاكو) أن يستمرا في طريق الفتح ، فأخضع كيلاي بلاد الصين ، وزحف هولاكو على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية ، وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله ، فأخذ ببغداد عنوة في أواسط القرن السابع من الهجرة ، وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهارا ، وطرحوا كتب العلم في دجلة وجعلوها جسرا يمررون عليه نجيوهم ، وبذلك انتهت الخلافة العباسية ببغداد .

ولما استولت ذرية جنكيزخان على آسيا كلها وأوربا الشرقية ، اقتسموا بينهم ما فتحوه ، وأنشئوا أربع ممالك ، فاخصت أسرة كيلاي بالصين والمغول ، وملك جاباقاي أخو أقطاي تركستان ، وملك ذرية باطرخان البلاد التي على شواطئ نهر فلجا ، وصارت روسيا تدفع لها الجزية زمنا طويلا ، وأخذ هولاكو بلاد الفرس وبغداد حتى بلاد الشام - وقد لخصنا ذلك من دائرة المعارف وابن خلدون وابن مسكويه ورسائل إخوان الصفا .

## سد ذى القرنين

كانت البلاد التي شرق البحر الأسود يسكنها قوم من الصقالبة (السلاف) وكان هناك سد منيع بالقرب من مدينة (باب الأبواب) أو (دربت) بجبل قوقاف وقد كشفوه في القرن الحاضر وهو غير السد الشهير الذي بناه ذو القرنين ، فإن هذا وراء جيحون في عمالة (بلخ) واسمه (باب الحديد) بمقربة من مدينة (ترمذ) وقد اجتازه تيمورلنك بجيشه ، ومر به أيضا (شاه روخ) وكان في بطانته العالم الألماني (سيلد برجر) وذكر السد في كتابه وكان ذلك في أوائل القرن الخامس عشر ، وكذلك ذكره المؤرخ الأسباني (كلا فيجو) في رحلته سنة ١٤٠٣ وكان رسولا من ملك كستيل (قشتاله) بالأندلس إلى تيمورلنك ، وقال إن سد مدينة (باب الحديد) على الطريق الموصل بين سمرقند والهند انتهى ملخصا من مقتطف سنة ١٨٨٨ م .

وبذلك تعلم أن السد موجود فعلا ، وأن هذا معجزة للقرآن الكريم حقا ، وهي إحدى المعجزات التي أيدها التاريخ وعلم تقويم البلدان ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «ويل للعرب من شر قد اقترب» وقد صدق رسوله ، فأزال هؤلاء المغول دولة العرب وانتهت بقتل المستعصم آخر ملوكها ، وبقي خليفة رسمي في مصر ، وزال ملكهم بتاتا في حدود الألف ، وتفرق ملك الإسلام شذرا مذر ، ولم تحفظه إلا الدولة العثمانية بعد العرب وقد كوّن أولئك التتار أغلب المسلمين في الهند والصين وأغلب آسيا ، فهم كما ورثوا بلادهم ورثوا دينهم .

## الإيضاح

(ويسألك عن ذى القرنين) أى تسألك قريش بتلفين اليهود سؤال اختبار وامتحان .

(قل سأتلو عليكم منه ذكرا) أى قل لهؤلاء المتعنتين : سأقص عليكم قصصا وافيا جامعا لما تريدون ، أعلميه ربي وأخبرني به .

ثم فصل ذلك فقال : (إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبيلًا) أي مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء ، بحيث يصل إلى جميع مسالكها ، ويظهر على سائر ملوكها ، وآتيناه من كل شيء أرادته من مهام ملكه وبسطة سلطانه طريقًا يوصله إليه ، فآتيناه العلم والقدره والآلات التي توصله إلى ذلك .

(فأتبع سبيلًا) حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة) أي فأراد بلوغ المغرب فأتبع طريقًا يوصله إليه ، حتى إذا بلغ منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يمكن تجاوزه ، ووقف على حافة البحر المحيط الاطلانطي ( المحيط الأطلسي ) وجد الشمس تغرب في عين ذات حمأة وطين أسود .

وخلاصة ذلك — إنه بلغ بلادًا لا بلاد بملها تغرب عليها الشمس ، إذ لم يكن عمران إلا ما عرفوه عند بحر الظلمات ، فهو قد سار إلى بلاد تونس ثم مراكش ووصل إلى البحر فوجد الشمس كأنها تغيب فيه ، وهو أزرق اللون كأنه طين وماء .

(ووجد عندها قوما) أي ووجد عند تلك العين قوما كفارًا تخبره الله بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإيمان ، وهذا تفصيل قوله : (فأتبع سبيلًا)

(قلنا إذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنًا) أي قلنا له بطريق الإلهام إما أن تقتلهم إن هم لم يقرؤا بوحدانيتي واذعنوا لك فيما تدعوهم إليه من طاعتي ، وإما أن تأمر بتعليمهم طريق الهدى والرشاد وتبصيرهم بالشرائع والأحكام .

(قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابًا نكرًا) أي قال ذو القرنين لبعض خاصته وبطانته : أما من ظلم نفسه فأصر على الشرك بربه فسنعذبه بالقتل ثم يرجع إلى ربه في الآخرة فيعذبه عذابًا منكرًا في نار جهنم .

(وأما من آمن وعمل صالحًا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرًا) أي وأما من صدق بالله ووجدانيته وعمل عملًا صالحًا في الدارين فله المثوبة الحسنى جزاء وفاقا على تلك الخلال الجلية التي عملها في دنياه ، وسنعمله في الدنيا ما يتيسر لنا

تعليمه مما يقربّه إلى ربه ، ويلين له قلبه ، ولا يشق عليه فعله مشقة كبيرة كالصلاة والزكاة والجهاد ونحوها .

( ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ) أى ثم قفل راجعا من مغرب الشمس وسلك طريقا موصلا إلى مشرقها ، حتى إذا بلغ الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولا من المعمور ، وجدها تطلع على قوم ليس لهم بناء يكتهم ، ولا أشجار تظلهم وتستترهم عن حر الشمس ، فليس لهم سقوف ولا جبال تمنع من وقوع أشعة الشمس عليهم ، لأن أرضهم لاتحمل بنينا ، بل لهم سرور يغيبون فيها حين طلوع الشمس ، ويظهرون حين غروبها ، فهم حين طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش ، وحين غروبها يشتغلون بتحصيل مهماتهم ، وأحوالهم على الضد من أحوال الناس .

وخلاصة ذلك — إنه بلغ غاية المعمور من الأرض جهة المشرق ووجد قوما لا لباس لهم ولا بناء ، فهم عراة فى العراء أو فى سراديب فى الأرض .  
( كذلك ) أى إن أمرضى القرنين كما وصفنا من قبل من بلوغه طرفى المشرق والمغرب ، ومن فعله الأفاعيل التى ذكرت ، فهو قد بلغ الغاية فى رفعة الشأن وبسطة الملك مما لم يتح لكثير غيره .

( وقد أحطنا بما لديه خبرا ) أى ونحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا شئ منها وإن تفرقت أهمهم وتقطعت بهم الأرض كما قال « لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » .

وخلاصة ذلك — إنه كما وصف وفوق ما وصف بما لا يحيط بعلمه إلا اللطيف الخبير .

( ثم أتبع سببا ) أى ثم سلك طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من مطلع الشمس إلى الشمال .

( حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا )

أى حتى إذا وصل بين الجبلين ، ( وقد تقدم وصف مكانهما بالتحديد كما رآه  
السائحون فى القرن الخامس عشر الميلادى ) وجد من دونهما أمة من الناس لا يكادون  
يفهمون كلام أتباعه ولا كلام غيرهم ، لبعد لغتهم عن لغات غيرهم ، مع قلة فطنتهم ،  
إذ لو كان لهم فطنة لفهموا ما يراد من القول بالقرائن وغوى الحال .

( قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ) أى قال مترجموهم :  
إن يأجوج ومأجوج يفسدون أرضنا بالقتل والتخريب وأخذ الأقوات وسائر ضروب  
الإفساد ( تقدم تحقيق القول فى ذلك ) .

( فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟ ) أى فهل تحب أن  
يجعل لك جُعْلاً من أموالنا فتجعل بيننا وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إلينا .  
وخلاصة ذلك — إنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم ما لا يعطونه إياه حتى  
يجعل بينهم وبينهم سدا .

( قال ما مكنى فيه ربى خير ) أى قال ذو القرنين : إن ما مكنى فيه ربى  
من بسطة الملك والسلطان ووفرة المال — خير مما تبذلونه لى من الخراج ، فلا حاجة  
بى إليه ، وهذا نحوه ما قاله سليمان عليه السلام « أُمِّدُّوْنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ  
خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ » .

والدول القوية يجب أن تحافظ على الدول الضعيفة ، ولا تأخذ منها مالا مادامت  
قادرة على إغاثتها .

وخلاصة ذلك — ما أنا فيه خير مما تبذلونه .

( فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ) أى ولكن ساعدونى بفعلة  
وصناع يحسنون العمل والبناء ، أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج سدا مقيما ،  
وحاجزا حصينا أمتع مما تريدون .

ثم بين تلك القوة التى طلبها فقال :

( آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله

نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا ) أى جيئوني بقطع الحديد ، فلما جاءوه بها أخذ  
 بيني شيئا فثبنا حتى إذا جعل مابين جانبي الجبلين من البنيان مساويا لهما في العلو ،  
 قال للعملة : انفضخوا بالسكيران في زبر الحديد التى وضعت بين الصدفين ففعلوا ،  
 وما زالوا كذلك حتى صارت كالنار اشتعالا وتوجها ، فصب النحاس المذاب على  
 الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض ، وسد الفجوات التى بين الحديد وصار  
 جبلا صلبا .

( فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقبا ) أى إن يأجوج ومأجوج  
 ما قدروا أن يصعدوا من فوق السد لارتفاعه وملاسته ، ولا استطاعوا ثقبه لصلابته  
 وثخائته .

( قال هذا رحمة من ربى ) أى قال ذو القرنين لأهل تلك الديار : هذا السد  
 نعمة من الله ورحمة بعباده ، إذ صار حاجزا بينهم وبين يأجوج ومأجوج يمنعهم من  
 أن يعيشوا فى الأرض فسادا .

( فإذا جاء وعد ربى جملة دكاء ) أى فإذا دنا وقت خروجهم من وراء السد  
 جملة ربى بقدرته وسلطانه أرضا مستوية ، فسلط عليهم منهم أو من غيرهم من  
 يهدمه ويسوى به الأرض .

( وكان وعد ربى حقا ) أى وكان كل ما وعد به سبحانه حقا ثابتا لا ريب  
 فى تحققه ، وقد جاء وعده تعالى بخروج جنكيزخان وسلائله فعاشوا فى الأرض فسادا  
 من الشرق والغرب وفعلوا الأفاعيل بالدولة الإسلامية ، وأزالوا معالم الخلافة من بغداد  
 كما علمت ذلك فيما سلف .

وقد ذكر المؤرخون أن سبب خروج جنكيزخان أن سلطان خوارزم  
 الساجوقى قتل رسله وتجاره المرسلين من بلاده ، وسلب أموالهم وأغار على  
 أطراف بلاده ، فاغتباط ، وكتب إلى السلطان كتابا قال فيه : كيف تجرأتكم  
 على أصحابى ورجالى ، وأخذتم تجارتى ومالى . . . أتحركون الفتنة النائمة

وتلبهون الشرور الكامنة ... أو ما جاءكم عن نبيكم ، (وعليكم أن تمنعوا من السفاهة غيبيكم ، وعن ظلم الضعيف غوييكم) أو ما بلغكم عنه مرشدكم ، أتركوا الترك ما تركوكم ، وكيف تؤذون الجار ، وتسيئون الجوار . ونبيكم قد أوصى به ... ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها ، وهذه وصاياي إليكم فعوها واحفظوها ، وتلافوا التلف قبل أن ينهض داعي الانتقام ، وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج ، وسينصر الله المظلوم ولنسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حذب اه ملخصا .

روى البخارى عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فرعا يقول « لا إله إلا الله وبل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تايها ، قالت زينب فقلت يا رسول الله : أهلك وفينا الصالحون ، فقال نعم إذا كثرا خطب » .

ولقد اتسع ذلك الفتح من هذا التاريخ شيئا فشيئا حتى فتح عن آخره في القرن السابع الهجرى ، وخرج هؤلاء القوم كما قدمنا وقد عثر على آثاره كما علمت في سلف . (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) أى ويرم يدك السد يخرج هؤلاء من ورائه يموجون في الناس ، ويفسدون عليهم زروعهم ويتلفون أموالهم ، وهذا بمعنى قوله في سورة الأنبياء : « حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ » أى وهم من كل مرتفع من الأرض يسرعون في النزول من الآكام والمرتفعات ، وتلك حال تنطبق على قوم جنكيزخان ، فقد كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى ، كما تقدم نقلا عن مؤرخى العرب والإفرنج .

كل هذا قبل النفخ في الصور بزمن مجهول غير معلوم .

(ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا) أى فإذا دنا ميقات الساعة نفخ في الصور وجمعنا الناس جمعا ، وأحضرناهم للحساب كما قال : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » وقوله : « وَجَسَّرْنَا هَمَّهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا » .



وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ  
 فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ  
 نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ صَلَّ  
 سَعْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا  
 آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا (١٠٦)

### شرح المفردات

عرضنا : أى أظهرنا وأبرزنا ، غطاء : أى غشاوة محيطية بها ، عن ذكرى : أى  
 عن الآيات الموصلة إلى ذكرى بتوحيدي وتمجيدى ، أولياء : أى معبودات يقوّنهم  
 بأسى ، اعتدنا : أى هيأنا ، نزلا : أى طعاما يتتعمون به حين ورودهم إلى ربهم ،  
 ولقائه : أى حين البعث والحشر وما يبع ذلك ، الهرو : السخرية والاحتقار .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة ينفخ فى الصور لجمع الخلائق وقيامهم من  
 قبورهم بعد أن تقطعت أوصالهم وتمزقت أجسامهم ، ويجمعهم فى صعيد واحد  
 للحساب والجزاء - قفى على ذلك ببيان أنه إذا ذاك يبرز النار للكافرين بحيث يرونها  
 ويسمعون لها تغيطا وزفيرا ، وفى ذلك تعجيل الهم والحزن لهم ، من قبل أنهم تماموا  
 وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق وحسبوا أن اتخاذهم أولياء من دون الله ينجيهم

من عذابه ، وأن ما عملوه من تلك الأعمال الباطلة نافع لهم ، وكل ذلك وهم وخيال فلا فائدة منه في ذلك اليوم ، ولا نقيم له إذ ذاك وزنا .

روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أنعم وضاحب القرن قد التقم قرنه ، وحنى الجبهة وأصغى الأذن ، متى يؤمر أن ينفخ ؟ ولو أن أهل مئى اجتمعوا على القرن أن يقلوه من الأرض ما قدروا عليه ، قال : فأبلس ( بئس وتحير ) أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشق عليهم ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » والحديث يشير إلى قرب الساعة وأنها أوشكت تجيء .

### الإيضاح

( وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ) أى وأبرزنا جهنم يوم ينفخ في الصور وأظهرناها للكافرين بالله حتى يروا أهوالها وشديد نكالها ويسمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وفي هذا تعجيل للهم والحزن ومعرفة أنهم واقعوها ، ولا يجدون عنها مصرفا .

ثم بين أوصافهم التي استحقوا بها هذا الجزاء فقال :

( الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ) أى إن هذا العذاب إنما نالهم من جرأ أنهم كانوا لا ينظرون في آيات الله فيتفكرون فيها ولا يتأملون حججه فيعتبروا بها وينيبوا إلى ربهم وينقادوا لأمره ونهيهِ ، وكانوا لا يطيعون أن يسمعوا ذكر الله الذي ذكرهم به ، وبيانه الذي بينه لهم في آى كتابه ، فغافلوا وتعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق كما قال : « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تَقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » .

ذاك أنهم لما دنسوا أنفسهم باجتراح المعاصي والآثام ، وأطاعوا وسوس الشيطان وما نصبه لهم من الحبال ، طبع الله على قلوبهم وجعل على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة .

ثم بين أن ما اعتمدوا عليه من المعبودات الأخرى لا يجديهم نفعا فقال :  
 ( أخصب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ) أى أفضن الذين  
 كفروا بى واتخذوا عبادى الذين هم فى قبضتى وتحت سلطانى كالملائكة وعيسى  
 - معبودات من دونى - أظنوا أن ذلك يجديهم نفعا أو يرفع عنهم ما يحل بهم من  
 النكال والوبال .

وخلاصة هذا - أظنوا أن ذلك الاتخاذ ينفعهم ، وأنه لا يفضينى - كلاً .  
 ثم أكد هذا الإنكار بقوله :  
 ( إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً ) أى إنا هيأنا لهؤلاء الكافرين جهنم عوضاً  
 مما أعدوه لأنفسهم من الأولياء الذين اتخذوهم زادا ليوم المعاد .  
 والخلاصة - إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذخر -  
 عدة هى جهنم وبئس المصير .

وفى ذلك تهكم بهم وتخطئة لهم فى حساباتهم ذلك ، وإيماء إلى أن لهم وراء  
 جهنم ألواناً أخرى من العذاب ، وما جهنم إلا أنموذج منه .  
 ثم ذكر سبحانه ما فيه تنبيه إلى جهلهم فقال :

( قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون  
 أنهم يحسنون صنعا ) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يجادلونك بالباطل من أهل  
 الكتابين اليهود والنصارى : هل نخبركم بالذين أتبعوا أنفسهم فى عمل يبيغون به  
 ثواباً وفضلاً فنالوا به هلاكاً وبواراً كالمشتري سلعة يرجوها ربها فخاب رجاءه  
 وخسر بيعه ووكس فى الذى رجا فضله .

وخلاصة ذلك - إنهم عملوا بغير ما أمرهم به الله ، وظنوا أنهم يفعلهم هذا  
 مطيعون له ، وأنهم يحسنون صنعا ، ثم استبان لهم أنهم كانوا مخطئين ، وفى ضلال  
 مبين ، وأن سعيهم الذى سعوا فى الدنيا ذهب هباء ، فلم يجدهم نقيراً ولا قطميراً .  
 ثم بين السبب فى بطلان سعيهم فقال :

( أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ) أى إن هؤلاء الأخسرين أعمالهم الذين كفروا بالدلائل المبنية فى الآفاق والأنفس التى تدعو إلى توحيده ، وكفروا بالبعث والحساب وما يتبع ذلك من أمور الآخرة ، ومن ثم حبطت أعمالهم ، فلم يكن لها ثواب ينفع أصحابها ، بل لهم منها عذاب وخزى طويل ، ولا تثقل بها موازينهم ، لأن الموازين إنما تثقل بالأعمال الصالحة وليس لهم منها شيء .

ثم بين ما لهم بسبب كفرهم وسائر معاصيهم إثر بيان أعمالهم المحبطة بذلك الكفر فقال :

( ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ) أى إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم رسل الله ومعجزتهم التى أظهرها على أيديهم هزوا وسخرية ، فلم يكتفوا بالكفر بها ، بل ارتكبوا هذه الحماقة التى هى أعظم أنواع الاحتقار .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ  
نَزْلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ  
مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا  
بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ  
إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ  
بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

### شرح المفردات

الفردوس: البستان بالرومية . وقال السدى: إنه الكرم بالنبطية وأصله فرداسا ،  
حوالا : أى تحولا ، والمداد : ما تد به الشيء ؛ واختص بما تمد به الدواة من الحبر ،

كلمات ربى : معلوماته غير المتناهية ، والرجاء : طمع حصول ما فيه مسرة مستقبلة ،  
ولقاء ربه : هو البعث وما يتبعه .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعدّه للكفار من العذاب فى جهنم ، وأن ذلك كان  
جزاء بما كفروا بربههم واستهزأهم برسله وآياته - أردف ذلك بما يرغب المؤمنين  
فى العمل الصالح من جنات تجري من تحتها الأنهار جزاء وفاقا على إيمانهم إلى ربهم  
وإخباتهم إليه ، ثم ختم السورة ببيان حال القرآن الذى ذكر فيه الدلائل والبيّنات  
على وحدانيته وإرسال الرسل والبعث والجزاء مما يدل على عظيم فضله ، ثم أعقب  
ذلك ببيان أن العمل لا يقبل إلا إذا صاحبه أمران : أن يكون خالصا لوجهه تعالى ،  
وأن يكون مبرا من الشرك الخفى والجلّى .

روى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من سمع سمع الله به ،  
ومن رأى رأى الله به » أى من عمل عملا مراعاة للناس ، وليشتهر به شهره الله  
يوم القيامة .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول  
« إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك  
فيه غيرى تركته وشركه » .

### الإيضاح

( إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ) أى إن  
الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به وعملوا صالح الأعمال ابتغاء  
لثوبة من ربهم - لهم بساكنات الفردوس فى أعلى الجنة وأوسطها منزلا .  
أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إذا سألتهم الله تعالى فاسألوه الفردوس ، فإنها أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقها عرش الرحمن تبارك وتعالى ومنه تنجر الأنهار » .

( خالدين فيها لا يبعثون عنها حولا ) أى لا تبثين فيها أبدا لا يبعثون عنها تحولا إلى غيرها ، قال ابن عباس : لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى .

وخلاصة هذا — إنه لا مكان أعز منها عندهم ، ولا أرفع شأننا حتى تنازعهم إليه أنفسهم ، وتطمح إليه أبصارهم ، ثم نبه إلى عظيم شأن القرآن بقوله :

( قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ) أى قل لهم أيها الرسول : لو كان ماء البحر مدادا للقم الذي تكتب به كلمات ربي وغلوه لنفد ماء البحر قبل أن تنفذ تلك الكلمات ، ولو مددنا ماء البحر بمثل ما فيه من الماء مددا وعونا ، لأن مجموع المنتاهيين مناه ، وعلوم الله وحكمته لا نهاية لها ، والمنتاهى لا ينفى البتة بغير المنتاهى ، ونحو الآية قوله « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَتَانَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ » .

روى أن اليهود قالوا يا محمد : نزع أننا قد أوتينا الحكمة ، وفي كتابك « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » ثم تقول « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » يريدون بذلك الاعتراض بوجود التناقض فأنزل الله الآية ردا عليهم .

وقد أثبت العلم الحديث ما يتبين منه أن في كل عالم من العوالم الأرضية والسموية ما لا يحصى من النعم على عباده ، وعليك أن تلقى سمعك إلى آخر الآراء التي اهتدى إليها العلماء في العصر الحاضر .

قال الأستاذ جينس الإنكليزي المدرس لعلوم الرياضيات التطبيقية في جامعة ( بنسلفانيا ) بأمريقا في ٧ من مارث ١٩٢٨ وهي أحدث الآراء في منشأ الكائنات وعدم التناهي في الزمان والمكان . ما خلاصته :

- (١) إن عمر الأرض نحو ألفي مليون سنة .
- (٢) إن الإنسان لم يعيش على الأرض إلا منذ ثلثمائة ألف سنة فحسب .
- (٣) إن الشمس ستظل بعد ألف ألف مليون سنة كما هي الآن تقريبا ، وتدور الأرض حولها كما هي الآن .
- (٤) الإنسان في المستقبل يكون أحكم من الإنسان الحاضر بثلاثة ملايين مرة على الأقل ، فسينظم معيشته على وفق حال الكرة الأرضية إذ ذاك .
- (٥) مما تقدم نعلم أن الإنسان حديث العهد بالولادة على الأرض ، فهو طفل في علومه ومعارفه ، وكل هم هذا الطفل كان موجها إلى غذائه ومسكنه ، وهو يجهل العوالم الأخرى ، ولكنه الآن عرف أن هناك عوالم أخرى لانهاية لها ، وأن معرفته بها تافهة جد التافهة ، وربما عاش بعد الآن ألفي مليون سنة على الأرض ، وبعبارة أخرى إنه يعيش مدة تعادل عمر الأرض في الماضي .
- (٦) الأجرام التي حولنا لها نهاية ، أما الفضاء الذي بعدها فلا نهاية له ، فالشمس والكواكب والمجرات لها نهاية ، ولكن وراءها فضاء لانهاية له .
- (٧) الأجرام العلوية التي نراها والتي لا نراها كرية الشكل كقطرة الماء وكرة الأرض والشمس .
- (٨) الإشارات اللاسلكية تنبعث من جهاز لاسلكي كبير تدور حول الكرة الأرضية في أقل من سبع ثانية ، وتعود إلى النقطة التي بدأت منها ، وهكذا نحن لو اخترقنا هذه العوالم رجعا إلى مبدأ سفرنا .
- (٩) إننا لو صنعنا منظارا قويا ( تلسكوبا ) لنرى الأجرام السماوية ، لرأينا النجوم بهيئتها التي كانت عليها حينما أرسلت إلينا النور قبل ملايين السنين .
- (١٠) إن الإنسان اليوم طفل في العلوم ، وربما علم في المستقبل ما لا يتخيله الآن .
- (١١) إن سرعة النور في الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، ومثله في ذلك

الكهرباء اللاسلكية ، لأنهما شيء واحد في جوهرهما ، ويرجح أن النور يسير حول الفضاء الكروي مائة ألف مليون سنة ، أى إن النور يدور في هذا العالم المملوء بالأجرام العالوية الذى مجموعه كرة واحدة مدة مائة ألف مليون سنة مع العلم بأنه يدور حول الأرض في سبع ثانية ، فما أبعد النسبة بين سبع ثانية ، وبين مائة ألف مليون سنة .

إلا أن الأرقام لا تقدر أن تحصى المسافة المحصورة بين أى نقطتين كانتا على محيط الفضاء الكروي .

(١٢) الشمس أكبر من الأرض حجما بمليون وثلاثمائة ألف مرة ، وما هي إلا حبة رمل على شاطئ هذا الفضاء الكروي ، وهى واحدة من أسرة من أسرة الكائنات التى فى الفضاء الكروي التى قدرها العلامة (سيرز) بثلاثين ألف مليون مجموعة ، وشمسنا وتوابعها حبة رمل فى مجموعة واحدة من هذه الثلاثين ألف مليون مجموعة .

(١٣) إن هناك سُدُما لولبية فى خارج المجرة ، وهى مجموعة من النجوم التى تم نشوؤها أو لاتزال فى طور التكوين ، وفى بعضها من المادة ما يكفى لخلق ألف مليون شمس كشمسنا .

(١٤) يقول (هويل) إن مرقب (تلسكوب) مونت ويلسون بأمریکا يرى نحو مليونين من تلك السدم ، وإذا تمكن الإنسان من صنع مرقب أكبر من هذا فإنه يرى بلا شك ملايين كثيرة أخرى منها ، ونبيها من المادة ما يكفى لخلق ملايين الشمس والأجرام الفلكية ، ويقول : إذا أردت أن تعرف عدد النجوم التى تسبح فى الفضاء على وجه التقريب ، فضع رقم ٢ وعلى يمينه ٢٤ صفرا ، وهذا العدد يعطى الجزائر البريطانية إلى عمق مئات من الأمتار .



(١٥) أضعف النجوم المعروفة هي نجم (وولف) ونوره جزء من عشرين جزءاً من نور الشمس ، ونور النجم (دورادوس) يساوى ثلثمائة ألف ضعف بالنسبة للنور المنبثق من الشمس .

وأصغر النجوم هو نجم (فان مانن) وحجمه كحجم الأرض ، وأكبر النجوم الجوزاء ، وهى أكبر من الشمس خمسا وعشرين مليون مرة ، ونسبة نورها إلى نور الشمس كنسبة نور المصابيح الكهربائية إلى نور حشرة (الحباب) .

(١٦) إن الشمس تخرج أشعة تعادل قوتها خمسين حصانا من كل بوصة مربعة وبعض النجوم التى هى أعظم من الشمس تشع نورا من البوصة المربعة يساوى قوة ثلاثين ألف حصان لكل بوصة مربعة .

(١٧) إن الشمس تفقد كل يوم من المادة بسبب خروج الأشعة منها ما يساوى ٢٥٠ مليون طن فى الدقيقة ، فى اليوم تفقد ٣٦٠ ألف مليون طن .

(١٨) يظن أن عمر الشمس الآن عشرة آلاف ألف مليون سنة ، ويمكن أن تعيش ملايين ملايين السنين دون أن تنطفىء .

(١٩) عمر الأجرام الفلكية يختلف من خمسة آلاف ألف مليون سنة إلى عشرة آلاف ألف مليون سنة اهـ .

هذه آراء علماء الفلك فى العصر الحاضر استنبطوها بالحساب تارة ، وبوجه التقريب تارة أخرى ، مما يرشد إلى تفسير قوله تعالى : ( قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي ) الآية .

فهذه هى الكلمات الإلهية التى أدهشت الألباب ، وضاعت الأعمار فى البحث عن علم شئ منها ، ولا يزال الناس فى عمية من أمرها ، ولم يصلوا إلا إلى معرفة القليل كما قال : « وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .

( قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ) أى قل لهم أيها الرسول : إنما أنا بشر مثل ما أنتم كذلك ، ولا أدعى الإحاطة بكلمات الله جلّت

قدرته ، ولا علم لى إلا ما علمنى ربى ، وأن الله أوحى إلى أن معبودكم الذى يجب أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً - هو معبود واحد لاثنى له ولا شريك .

( فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ) أى فمن كان يطاع فى ثواب الله على طاعته فليخلص له العبادة ، وليفرد له الربوبية ولا يشرك به سواه ، لا إشراكاً جانياً كما فعل الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، ولا إشراكاً خفياً كما فعل أهل الرياء ممن يطلب بعمله الدنيا ، وهذا هو الشرك الأصغر كما صح فى الحديث ، وروى مستفيضاً فى الأخبار من أن كل عمل أريد به الدنيا لا يقبل ، فقد أخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه قال : « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى فأنا بربى منه وهو لذى أشرك » نسأل المولى القدير أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ، لا يراد به رضا أحد من خلقه .

### إجمال ما تضمنته السورة من الأغراض والمقاصد

- ( ١ ) وصف الكتاب الكريم بأنه قيم لا عوج فيه ، جاء للتبشير والإنذار .
- ( ٢ ) ما جاء على ظهر الأرض هو زينة لها ، وقد خلقه الله ابتلاء للإنسان ليرى كيف ينتفع به .
- ( ٣ ) ما جاء من قصص أهل الكهف ليس بالعظيم إذا قيس بما فى ملكوت السموات والأرض .
- ( ٤ ) وصف الكهف وأهله ، مدة لبثهم فيه ، عدد أهله .
- ( ٥ ) أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالجلوس مع فقراء المؤمنين وعدم الفرار منهم إلى أغنيائهم إجابة لدعوتهم .
- ( ٦ ) ذكر ما يلاقيه الكفار من الوبال والنكال يوم القيامة .
- ( ٧ ) ضرب مثل يبين حال فقراء المؤمنين وأغنياء المشركين .

- (٨) ضرب المثل لحال الدنيا .
  - (٩) عرض كتاب المرء عليه فى الآخرة وخوف المجرمين منه .
  - (١٠) عداوة إبليس لآدم وبنيه .
  - (١١) قصص موسى والخضر .
  - (١٢) قصص ذى القرنين وسد يأجوج ومأجوج ، وكيف صندهم ذو القرنين .
  - (١٣) وصف أعمال المشركين وأنها ضلال وخيبة فى الآخرة .
  - (١٤) ما يلقاه المؤمنون من النعيم فى الآخرة .
  - (١٥) علوم الله تعالى لانهاية لها .
-

## سورة مريم

هي مكية إلا آيتي ٥٨ ، ٧١ فدينيتان ، وعدد آياتها ثمان وتسعون .  
ومناسبتها لسورة الكهف اشتغالها على نحو ما اشتملت عليه من أعاجيب  
القصص كقصة ولادة يحيى ، وقصة ولادة عيسى عليهما السلام .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْمَصَ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ  
نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ  
أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَرَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ  
امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِئُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ  
وَجَعَلُهُ رَبًّا رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ  
لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبُّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي  
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى  
هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً  
قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ  
مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) .

## شرح المفردات

زكريا ( يمد ويقصر ) من ولد سليمان بن داود عليهم السلام وكان نجارا ،  
نادى ربه : أى دعاه ، خفيا : أى مستورا عن الناس لم يسمعه أحد منهم ،

وهن العظام : ضعف ورق من الكبر : إذ قد بلغ خمسا وسبعين سنة أو ثمانين ، واشتعل الرأس شيئا : أى صار الشيب كالنار والشعر كأنه الحطب ، ولقوتها وشبثها أحرقت الرأس نفسه ، شقيا ؛ يقال شقى بكذا : أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه والمراد أنه خائب غير مستجاب الدعوة ، الموالى : هم عضبة الرجل ، من ورأى : أى من بعدى ؛ ويقال رجل عاقر وامرأة عاقر إذا كانا عقيمين ، وليا : أى ولدا من صلبى ، ويعقوب : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وكان متزوجا أخت مريم بنت عمران من ولد سليمان عليه السلام ، رضا : أى مرضيا عندك قولاً وفعلاً ، سميا : أى شريكاً له فى الاسم ؛ فلم يسم أحد بهذا الاسم قبله ، وهذا دليل على أن الأسماء السُّنَّع - الشريفة - جديرة بالأثرة وإياها كانت العرب تنتحى فى التسمية كما قال قائلهم فى المدح :

سُنَّعُ الْأَسْمَى مُسْتَبْلَى أَزَرَ حَمْرَتِمْ الْأَرْضَ بِالْهَدَبِ

أنى : أى كيف ، عتيا من عتا يعتو : أى ييست مفاصله وعظامه ، شيئا : أى موجودا ، آية : أى علامة ، سويا : أى سوى الخلق سليم الجوارح ليس به بكم ولا خرس ، الحراب المصلّى ، أوحى : أى أومأ وأشار ، سبّحوا : أى صلوا ، بكرة وعشيا ، أى صلاة الفجر وصلاة العصر .

### المعنى الجملى

روى محمد بن إسحاق فى السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة - أن جعفر بن أبى طالب قرأ صدر هذه السورة على النجاشى وأصحابه .

### الإيضاح

(كَيْعَصَ) تقدم الكلام فى المراد من أوائل السور ، وأن المختار أن المقصود بها التنبيه بحروف التنبيه التى تقع أول الكلام نحو ألأ ويا وغيرها ، وتقرأ بأسمائها فيقال (كاف . ها . يا . عين . صاد) .

( ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيا ) أى مما نقص عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا حين دعا ربه دعاء خفيا مستورا عن أعين الناس . وإنما أخفى دعاءه لأنه أدل على الإخلاص وأبعد من الرياء وأقرب إلى الخلاص من لأئمة الناس على طلب الولد وقت الكبر والشيخوخة . وقصارى ذلك — إن فى هذه السورة ذكر الرحمة التى رحم الله بها عبده زكريا حين أسرى بدعائه إليه .

ثم فصل كيفية دعائه بقوله :

( قال رب إني وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا . وإني خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا ) أورد زكريا عليه السلام قبل سؤاله أمورا ثلاثة ، كل منها يستحق الرحمة والشفقة :

( ١ ) ضعفه ظاهرا وباطنا ، وأثر الأول قد ظهر فى العظام التى هى حاملة سائر الأعضاء ، ومتى وصل إليها الضعف كان ضعف ماعداها أولى وأجدر ، وأثر الثانى واضح باستيلاء الشيب على الرأس واضطراره فى السواد كما قال ابن دريد :

إما ترى رأسى حاكى لونه طرّة صبح تحت أذيال الدجى  
واشتعل المبيض فى مسودّه مثل اشتعال النار فى جهر الغضا

( ٢ ) إنه مارّد دعاؤه ولا خاب استعطافه حينئذ من الدهر ، بل كان كلما دعا استجيب له ، وهو فى هذه الحال أجدر بالإجابة لضعفه وشيخوخته ، وفى هذا إشارة إلى لطف الله به وعظيم فضله عليه مدى حياته .

وقد روى التاريخ أن معن بن زائدة أتاه سائل فقال من أنت ؟ قال أنا الذى أحسنت إليه حين كذا ، قال مرحبا بمن توسل بنا إلينا وقضى حاجته .

( ٣ ) إن فى إجابة الطلب منفعة دينية ، إذ أنه خاف أن الموالى أى الورثة الذين يخلفونه فى إقامة الشعائر الدينية — لا يؤدّون ما يجب عليهم نحو الدين من نشره وتبليغه للناس وعبادة الله كما أمر ، والذب عنه إذا جد الجدد ووجب الدفاع عنه ،

فقد أثر عنهم أنهم كانوا من شرار بنى إسرائيل نخافهم ألا يحسنوا خلافته في أمته  
لا في الدين ولا في المال ولا في السياسة التي تتبع في إدارة شؤونها .

وقد عرف زكريا عليه السلام ببعض الأمارات أن عصبته وهم إخوته وبنو عمه  
ربما استعمروا على عادتهم في الشر والفساد نخافهم على الدين أن يغيروه ، وألا يحسنوا  
الخلافة على أمته ، فطلب عقبا من صلبه يقتدى به في إحيائه ، وينهج نهجه  
فيه فقال :

(فوب لي من لدنك وليا . يرثني ويرث من آل يعقوب<sup>(١)</sup> واجعله رب رضيا)  
أى أعطى من واسع فضلك وعظيم جودك وعطائك لا بطريق الأسباب العادية ولدا  
من صلبى ، يرث الحבורة منى ويرث من بنى مائنان ملكهم (قال الكلبي كان  
بنو مائنان رءوس بنى إسرائيل وملوكهم ، وكان زكريا رئيس الأخبار يومئذ)  
ويكون برا تقيامرضيا عندك وعند خلقك ، تحبه ويحونه لدينه وخلقه ومحاسن شيمه .  
ونحو الآية قوله في سورة آل عمران حكاية عنه « قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ  
ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » وقوله في سورة الأنبياء « وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي  
فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ » :

ثم أخبر سبحانه أنه أجاب دعاءه وتولى تسمية الولد بنفسه فقال :  
(يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ) أى فاستجاب  
دعاه وقال : يا زكريا إنا نبشرك بهبتنا لك غلاما اسمه يحيى (معرب يوحنا ، فى  
إنجيل متى أنه يدعى يوحنا المعمدان لأنه كان يعتمد الناس في زمانه) لم يسم أحد من  
قبله بمثل اسمه .

ثم ذكر جواب زكريا عند هذه البشرى مظهرا للتعجب مما سمع :  
(قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا؟)  
أى ومن أى وجه يكون لى ذلك وامراتى عاقرا لا تحبل ، وقد ضعفت من الكبر

(١) هو يعقوب بن مائنان وأخوه عمران بن مائنان والد مریم .

عن مباذعة النساء ، أَيْ بَأَنَّ تَقْوِيَّتِي عَلَى مَا ضَعُفَتْ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَتَجْعَلُ زَوْجِي وَلَوْ دَا  
وَأَنْتَ الْقَادِرُ عَلَى مَا تَشَاءُ ، أَمْ بَأَنَّ أَتَزَوَّجُ زَوْجًا غَيْرَ تِلْكَ الْعَاقِرِ ؟  
وختلاصة ذلك — إنه يستثبت ربه الخبير عن الوجه الذي يكون من قبله الولد  
الذي بشره به ، لا إنكاراً منه لذلك ، وكيف يكون منه الإنكار لذلك وهو المبتدئ  
مسألة ربه به بقوله : فهب لي من لدنك ولياً .

وإجمال المعنى — إنه تعجب حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد ، ففرح  
فرحاً شديداً وسأل عن الوجه الذي يأتيه منه الولد ، مع أن امرأته عاقراً لم تلد من  
أول عمرها ، والآن قد كبرت وهو قد كبر وعتا : أى يبسن عظمه ونحل ولم يبق له  
قدرة على قربان النساء ، وكأنه يقول : إني حين كنت شاباً وكهلاً لم أرزق الولد  
لاختلال أحد السبيين وهو عقم المرأة ، أخفين اختل السببان أرزقه ؟  
(قال كذلك) أى قال الله تعالى : الأمر كما قلت ، فسنهب لك الولد مع  
ما أنتمأ عليه من العقم والشيخوخة .

ثم علل هذا بقوله :

(قال ربك هو على هين) أى قال ربك الذى عودك الإحسان : خلق ولد  
منكما على هذه الحال هين ، فإني إذا أردت شيئاً كان دون توقف على الأسباب  
العادية التى رسمتها للحمل والولادة .

ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال :

(وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) أى وليس خالق الغلام الذى وعدتك  
أن أهبه لك مع كبر سنك وعقم زوجك بأعجب من خلق البشر جملة من العدم ،  
فإن خلق آدم ما هو إلا أنموذج لسائر أفراد الجنس مستتبع لجريان آثاره عليه ،  
فإبداعه عليه السلام على هذا النمط إبداع لجميع أفراد ذريته ، والقادر على خلق  
الذوات والصفات من العدم المحض يكون أجدر بالمقدرة على تبديل الصفات بخلق  
الولد من الشيخ والشيخة .



وخلاصة ذلك — إن من قدر على خلق الذوات والصفات والآثار من العدم،  
أَجْدَرُّ به أن يكون قادرا على تبديل الصفات ، فيعيد إليه وإلى زوجه القوة وسائر  
الوسائل التي بها يمكن أن ينشأ منهما الولد كما قال « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى  
وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ » .

ثم أخبر سبحانه أن زكريا تأقت نفسه إلى سرعة وجود المبرر به ، ليطمئن  
قلبه بما وعده كما قال إبراهيم من قبله « رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنْشِئُ الْمَوْتَى » ، قَالَ  
أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي » فقال حاكيا عنه .

( قال رب اجعل لي آية ) أى قال رب اجعل لي علامة تدلني على تحقق  
المسئول في زمن معين ، إذ كانت البشارة غير مقيدة بوقت ، والحمل خفي في مبدئه  
ولا سيما من انقطع حيضها لكبرها — إلى أنه أراد أن يطلعه على ذلك ليتلقى تلك  
النعمة الجليلة بالشكر حين حدوثها .

ثم بين أنه أجابه إلى ما طالب فقال :

( قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ) أى علامتك على وجود المبرر  
به وحصول الحمل ، ألا تقدر على تكليم الناس بكلامهم المعروف في محاوراتهم ثلاث  
ليال وأنت صحيح سوى الخلق سليم الجوارح ليس بك علة ولا مرض .  
وجاء في سورة آل عمران « قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ  
النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا » .

( فخرج على قومه من المحراب ) أى فخرج غيباً إعلام الله له بهذه الآية على  
قومه من المحراب ( وهو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح ؛ وهو مقصورة في مقدم  
المعبد لها باب يصعد إليه بسلم ذي درج قليلة يكون من فيه محجوبا عن في المعبد )  
منقطع اللون منطلق اللسان بذكر الله منحبسه عن كلام الناس ( وقد كانوا ينتظرون  
أن يفتح لهم الباب إذ كان من عادتهم أن يصلوا معه صلاتي الغداة والعشي في محرابه )  
فقالوا مالك يا نبي الله ؟

(فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) أى فأوحى إليهم وأشار كما جاء فى الآية الأخرى «إِلَّا رَمَزًا» أى سبحوا الله ونزهوه عن الشريك والولد، وعن كل نقص طرفى النهار .

وقد كان أخبرهم بما بشر به قبل وجود الآية ، فلما تعذر عليه الكلام أشار إليهم بمحصل ما بشر به من ذلك الأمر العجيب فى مجرى العادة فسرّوا به .  
فلما ولد وبلغ سنا يؤمر فيه مثله قلنا :

يَا نَحْيِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ  
لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤)  
وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) .

### شرح المفردات

الكتاب: هو التوراة ، والقوة: الجِد والاجتهاد، والحكم: الحكمة: الفقه فى الدين،  
وحنانا: أى عطفًا على الناس ، وزكاة: أى طهارة من الذنوب والآثام ، تقيا: أى مطيعا  
لأمر ربه متنبها عما نهى عنه، وبراً بوالديه : أى كثير البر والإحسان إليهما ، جبارا:  
أى متعاليا عن قبول الحق والإذعان له، عصيا: أى مخالفا أمر مولاه ، سلام: أى أمان  
من الله عليه .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه دعاء زكريا ربه أن يهبه غلاما سرىا ، وذكر أنه أجاب  
طلبه وجعل لذلك أمانة يعلم منها وقت الحمل به - ذكر هنا أنه بعد أن ظهر ذلك  
المولود إلى عالم الوجود وترعرع ونما ، أمره بالجِد والعمل لطاعته ، وجعله طاهرا برّا  
بوالديه لا يعصى أوامر ربه ولا يتعالى عن قبول الحق .

## الإيضاح

(يايحيى خذ الكتاب بقوة) أى خذ التوراة التى هى نعمة الله على بنى إسرائيل  
بجدّ واجتهاد وحرص على العمل بها .

ثم وصفه الله بصفات كلها مناهج للخير ووسائل للطاعة فقال :

(١) (وآتيناك الحكم صبيا) أى وأعطيناك الحكمة والفقہ فى الدين والإقبال  
على الخير وهو صغير لم يتم سبع سنين ، روى أن الغلمان قالوا له يوما : هيا بنا نلعب ،  
قال : مالا لعب خلقنا ، اذهبوا بنا نصل .

(٢) (وحنانا من لدنا) أى وجعلناه ذا حنان وشفقة على الناس وحسن نظر  
فيا وليه من الحكم فيهم ، وقد وصف الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمثل هذا  
فى قوله « قَيِّمًا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَّيَّاسًا لَّا يَفْخَبْ » وقوله « حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ  
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » .

(٣) (وزكاة) أى طهارة من الدنس وبعدا من اجتراح الذنوب والآثام .

(٤) (وكان تقيا) أى مطيعا لما به أمر وعنه نهى ، فلم يفعل معصية ولا هم بها .

(٥) (وبرا بوالديه) أى كثير البر بهما والإحسان إليهما والحدب عليهما بعميدا  
عن عقوقهما قولا وفعلًا ، وقد جعل الله طاعة الوالدين فى المرتبة التى تلى مرتبة طاعته  
فقال : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » .

(٦) (ولم يكن جبارا) أى لم يكن متكبرا على الناس ، بل كان لين الجانب  
متواضعا لهم ، وقد أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمثل هذا فى قوله :  
« وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » ووصفه بقوله : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا  
غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفُضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » ومن ثم لما تحير إبليس وتمرد صار مبعدا من  
رحمة ربه .

(٧) (عصيا) أى مخالفا لما أمره ربه .

ثم ذكر سبحانه جزاءه على ما قدم من عمل صالح وأسلم من طاعة ربه فقال :  
 ( وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ) أى وتحيية من الله عليه  
 أول ما يرى الدنيا ، وأول يوم يرى فيه أمر الآخرة ، وأول يوم يرى فيه الجنة والنار .  
 وإنما خص هذه المواضع الثلاثة ، لأن العبد أحوج ما يكون إلى رضا ربه فيها  
 لضعفه وحاجته وقلة حيلته وافتقاره إلى رحمة ربه ورأفته به .

وَإِذْ كُنَّا فِي السَّكِينِ إِذْ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦)  
 فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا  
 سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا  
 أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ  
 وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْئٍ  
 وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١)

### شرح المفردات

انتبذت : أى اعتزلت وتحت ، مكانا شرقيا : أى شرقى بيت المقدس ،  
 حجابا : أى ساترا توارت به منهم ، روحنا : هو جبريل عليه السلام ، سويا : أى  
 سوى الخلق كامل البنية ، أعوذ : أى أعتمصم وألتجئ ، تقيا : أى مطيعا ، لأهب  
 لك : أى لا كون سببا فى هبته ، غلاما : أى ولدا ذكرا ، زكيا : أى طاهرا من  
 الأدناس والأرجاس ، أنى : أى كيف يكون ذلك ؟ آية : أى علامة على قدرة  
 خالقكم ، مقضيا : أى محتوما قد تعلق به قضاؤنا الأزلى .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص زكريا عليه السلام وأنه أوجد منه فى حال كبره وعقم  
زوجه ولدا زكيا مباركا - أردف ذلك بذكر قصص مريم وأنه أنجب منها ولدا من  
غير أب ، وبين القصصين مناسبة ظاهرة ، ومن ثم ذكرهما مقترنين فى سورة  
آل عمران وهنا وفى الأنبياء ، وبدأ بقصة يحيى لأن خلق الولد من شخصين فانيين  
أقرب إلى مناهج العادات من خلق الولد بلا أب ، ثم ثنى بقصة عيسى لأنها أغرب  
من تلك .

ومن حسن طرق التعليم والتنظيم التدرج بالانتقال من الأقرب منالا إلى أصعب  
منه ، وهكذا صُعُدا .

## الإيضاح

( واذا ذكر فى الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ) أى واتل  
أيها الرسول فى كتاب الله الذى أنزله إليك بالحق ، قصص مريم بنة عمران حين  
اعتزلت من أهلها وانفردت عنهم إلى مكان شرقى بيت المقدس لتتخلى للعبادة .  
وعن ابن عباس أنه قال : إني لأعلم خلق الله لأى شىء اتخذ النصرارى المشرق  
قبلة ، لقول الله عز وجل : « إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا » فاتخذوا ميلاد  
عيسى عليه السلام قبلة .

( فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ) أى  
فاتخذت من دون أهلها سترا يسترها عنهم وعن الناس ، فأرسلنا إليها جبريل عليه  
السلام ، فجاءها بصورة رجل معتدل الخلق ليعلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة  
عيسى عليه السلام من غير أب ، إذ ربما يشبهه عليها الأمر فقتلت نفسها أسى وغما ،  
وإنما مثل لها بهذا المثال لتأنس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته ، ولأنه  
لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع محاورته .

ثم حكى عنها سبحانه ما قالته حينئذ فقال :  
 ( قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ) أى فلما رأتها فزعته منه وقالت  
 إني أستجير بالرحمن منك أن تنال منى ما حرم الله عليك إن كنت ذا تقوى له ، تمنى  
 محارمه وتجنب معاصيه ، فمن يتق الله يجنب ذلك .

وإجمال المعنى — إنه لما تبدى لها فى صورة البشر وهى فى مكان منفرد ،  
 وبينها وبين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريد لها على نفسها فقالت : إني أعوذ  
 بالله منك إن كنت تخافه — وقد فعلت المشروع فى الدفع وهو أن يكون بالهوى  
 والأسهل فالأسهل .

وخلاصة ذلك — إن الاستعاذة لا تؤثر إلا فى التقى ، لا أن الله تعالى يخشى  
 فى حال دون حال ، فهو كقوله : « وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »  
 أى إن الإيمان يوجب ذلك .

فلما علم جبريل خوفها :  
 ( قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ) أى فقال لها الملك مجيبا لها  
 ومزيلا لما حصل عندها من الخوف على نفسها : لست ممن تظنين ، ولا يقع منى  
 ما تتوهين من الشر ، ولكنى رسول ربك بعثى إليك ، لأهب لك غلاما طاهرا  
 مبرا من العيوب ، وقد أضاف الهبة إلى نفسه من قبل أنها جرت على يده بأن نفخ  
 فى جيبها بأمر الله .

ولما عجبت مريم مما سمعت :  
 ( قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ) أى قالت لجبريل :  
 من أى وجه يكون لى غلام ولست بذات زوج ولا يتصور منى الفجور ؟  
 ( قال كذلك قال ربك هو على هين ) أى قال الملك مجيبا لها عما سألت : إن  
 الله قد قال : إنه سيوجد منك غلام وإن لم تكونى ذات بعل ، ولا تقترفين فاحشة  
 فإنه تعالى على ما يشاء قدير ، ولا يمتنع عليه فعل ما يريد ، ولا يحتاج فى إنشائه إلى  
 المواد والآلات .

ونحو الآية قوله في سورة آل عمران : « كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

(ولنجعل له آية للناس) أى وفعلنا ذلك لنجعل خلقه برهاناً على قدرتنا ، فقد خلقنا أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلقنا عيسى من أنثى فحسب ، وخلقنا بقية الذرية من ذكر وأنثى ، وإلى الأولين أشار القائل :

ألارب مولود وليس له أب وذى ولد لم يلدّه أبوان

(ورحمة منا) أى ورحة من الله لعباده ، إذ بعثه نبياً يدعو إلى عبادته وتوحيده .

(وكان أمراً مقضياً) أى قد قضاه الله فى سابق علمه ، ومضى به حكمه ، فلا يغير

ولا يبدل : « مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالْيَتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَزَىٰ إِلَيْكِ جِذْعَ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) .

### شرح المفردات

فانتبذت : أى فاعتزلت ، قصيا : أى بعيداً من أهلها وراء الجبل ، فأجاءها المخاض : أى فألجأها واضطرها ؛ والمخاض : الطلق حين تحرك الولد للخروج من البطن والنسي ( بفتح النون وكسر ها ) الشيء الخفير الذى من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالولد والحبل ، والنسي : ما لا يخطر بالبال لتفاهته ، والسرى : السيد

الشريف ، والهز تحريك الشيء بعنف أو بدونه ، تساقط : أى تسقط ، ورطبا : أى  
يسرا ناخجا ، جنيا : أى صالحا للاجتماع ، فقولى : أى أشيرى إليهم . قال القراء :  
العرب تسمى كل ما أفهم الإنسان شيئا - كلاما بأى طريق كان ، إلا إذا أكد  
بالمصدر فيكون حقيقة فى الكلام كقوله : « وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » صومرا :  
أى صمنا .

### الإيضاح

( حملته فانتبذت به مكانا قصيا ) أى فلما قال لها جبريل ما قال . استسامت  
نقضاء الله فنفتح جبريل فى جيب درعها ( الفتحة التى من الأمام فى القميص )  
فدخلت النفخة فى جوفها فحملته قاله ابن عباس ، وقال غيره : نفخ فى كفا ، والقرآن  
قد أثبت النفخ فقال : « فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا » ولم يعين موضع النفخ فلا نجزم  
بشيء من ذلك إلا بالدليل القاطع ، وحينئذ اعترلت بالذى حملت وهو عيسى عليه  
السلام مكانا قاصيا عن الناس .

والقرآن الكريم لم يعين مدة الحمل ( ولا حاجة إليها فى العبرة ) فنقول إنها  
كانت كما يكون غيرها من النساء إلا إذا ثبت غيره ، وكذلك لا حاجة إلى تعيين  
سنها حينئذ إذ لا يتعلق به كبير فائدة .

وإنما اتخذت المكان البعيد حياء من قومها وهى من سلائل بيت النبوة ، ولأنها  
استشعرت منهم اتهامها بالريبة فرأت أن لا تراهم وأن لا يرونها .

( فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا  
منسيا ) أى فأجأها وجع الولادة وألم الطلق أن تستند إلى جذع النخلة للتشبث به  
سهولة الولادة ، وتحت أن لو كانت ماتت قبل هذا الوقت الذى لقيت فيه ما لقيت ،  
حياء من الناس وخوفا من لائمهم ، أو كانت شيئا لا يعتد به ولا يخطر ببال أحد  
من الناس .



( فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ) أى فناداها عيسى عليه السلام كما قال الحسن البصرى وسعيد بن جبير ، ( وقد أنطقه الله حين وضعته تطيبا لقلبها ، وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد بآدى ذى بدء علو شأن ذلك المولود الذى بشرها به جبريل عليه السلام ) ألا تحزنى فقد جعل ربك الحسن إليك تحتك غلاما رفيع الشأن سامى القدر ذا سخاء فى مروءة .

( وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ) أى أميلى إليك جذع النخلة واجذبيه بتحريكه ، يسقط عليك رطبا جنيا تأكلين منه مائتائين .  
وتلك آية أخرى لها ؛ إذ روى أنها كانت نخلة يابسة لأرأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء ، فأنزل الله لها رزقا فجعل للنخلة رأسا وخصوصا وجعل لها ثمرا رطبا - وهذه رواية يعوزها الدليل .

وفى هذا إيماء وتنبيه إلى أن من يقدر أن يثمر النخلة اليابسة فى الشتاء يقدر أن يجعلها تحمل من غير السنن العادية ، وإلى أن السعى فى الرزق مطلوب ولا ينافى التوكل ، والله در القائل :

ألم تر أن الله أوحى لمريم  
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه إليها ولسكن كل شئ له سبب

( فكلى واشربى وقرى عينا ) أى فكلى من ذلك الرطب واشربى من عصيره وطبى نفسا وأبعدى عنك الأحزان ، فإن الله قدير أن ينزه ساحتك ويبعد عنك تحرصات المبطلين الذين يتقيدون بالسنن التى جعلها الله الطريق للولادة فى البشر ، ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك حتى يشبثوا لك القداسة والظهور .

( فإما ترين من البشر أحدا فقولى إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ) أى فإن رأيت أحدا من بنى آدم يسألك عن أمرك وأمر ولدك وكيف ولدته ، فأشيرى إليهم - إني أوجبت على نفسى الله صمتا ألا أكلم أحدا اليوم ، فإن كلامى يقبل الرد والجدل ، ولكن يتكلم عنى ذلك المولود الذى لا يقبل كلامه الذفع

والرد، وإني أنزه نفسي عن مجادلة السفهاء، ولا أكلم إلا الملائكة أو أناجي الخالق .  
وليس الصمت عن الكلام من شريعة الإسلام ، فقد روى أن أبا بكر دخل  
على امرأة قد نذرت ألا تتكلم فقال إن الإسلام قد هدم هذا فتكلمي ، وروى  
ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه جاءه رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر ثم جلسا ،  
فقال القوم : ما لصاحبك لم يسلم ؟ قال إنه نذر صوما لا يكلم اليوم إنسيا ، فقال له  
ابن مسعود : يتس ماقلت ، إنما كانت تلك المرأة قالت ذلك ليكون عذرا لها  
إذا سئلت ، وكانوا ينكرون أن يكون ولد من غير زوج إلا زنا - فكلّم وأسر  
بالمعروف وإنه عن المنكر فإنه خير لك .

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧)  
يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٢٨)  
فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُسَکُّم مِّنْ كَانَ فِي الْمُهْمِذِينَ (٢٩) قَالَ إِنِّي  
عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ  
وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي  
جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ  
حَيًّا (٣٣) .

### شرح المفردات

فريّا : أى عطيّا خارقا للعادة؛ وهى الولادة بلا أب ، من فرى الجلد أى قطعه على  
وجه الإصلاح أو الإفساد، ومنه فى وصف عمر « فلم أر عبقرى يفرى فريّه » وفى المثل  
جاء يفرى الفرى ، وهرون هو أخو موسى عليه السلام ، وقيل هو رجل صالح من  
بنى إسرائيل ، والأخت على هذا بمعنى المشابهة ، وشبهوها به تهنكا ، أو لما رأوا من

قبل من صلاحها ، والمهد : الموضع يهياً للصبي ويوطأ والجمع مهود ، والكتاب : الإنجيل ، مباركاً : نفاعاً للناس ، أو ثابتاً في دين الله ، الجبار : المتعظم الذي لا يرى لأحد عليه حقاً ، والشقي : العاصي لربه .

## الإيضاح

( فأبت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فرياً ) أى إن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ولا تكلم أحداً من البشر ، وأنها ستكفي أمرها ويقام بحجتها - سلمت أمرها إلى الله واستسلمت لقضائه ، فأخذت ولدها وأتت به قومها تحمله ، فلما رأوها كذلك أعظموا مارأوا واستنكروا وقالوا يامريم لقد جئت أمراً عظيماً منكراً . ثم زادوا تأكيدها في توبيخها وتعييرها فقالوا :

( يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً ) أى يا من أنت من نسل هرون أخى موسى ، كما يقال للتميمي يا أخت تميم ، وللمضري يا أخت مضر ، أو يا من أنت شبيهة بذلك الرجل المسمى بهذا الاسم الذى كنت تتأسين به في العبادة والزهد - ما كان أبوك بالفاجر وما كانت أمك بالبغي ، فمن أين لك هذا الولد؟ .

أخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وعبد بن حميد وابن أبى شيبة وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران فقالوا : أرايت ما تقرءون » يا أخت هرون « وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، قال فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا أخبرتم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم » وهذا التفسير النبوى يغنى عن سائر ما روى عن السلف في ذلك .

( فأشارت إليه ) أى فأشارت إلى عيسى أن كلوه ، وإنما اكتفت بالإشارة

ولم تأمره بالنطق لأنها تذر للرحمن صوما عن الكلام ، أو اقتصر على ذلك للمبالغة في إظهار الآية العظيمة ، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة .  
( قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا ) أى قالوا لها متهمين بها ظانين أنها تزدري بهم وتهزأ : كيف نكلم من هو صبي في المهد ، ولم يعبد في مثله وهو لم يدرج بعد من حجر أمه أن يكلم أحدا ؟ .

روى أن عيسى لما سمع كلامهم أقبل عليهم وترك الرضاع وأشار يمينه ، ثم بدأ يتكلم فوصف نفسه بجملة صفات :

(١) ( قال إني عبد الله ) أى إني عبد الله الذى له صفات الكمال لا أعبد غيره ، وفي هذا إيماء إلى أن من كان عبد الله لا يتخذ إلها من دونه ، ولا يستعبده شيطان ولا هوى .

(٢) ( آتاني الكتاب ) أى سينزل على الإنجيل .

(٣) ( وجعلني نبيا ) أى وسيجعلني نبيا ، وفي هذا براءة لأمه ، لأن الله لا يصطفى لنبوته أولاد سفاح .

(٤) ( وجعلني مباركا أينما كنت ) أى سيجعلني نفاعا للناس هاديا لهم إلى سبيل الرشاد في أى مكان كنت ، وقد جعل هذه الصفات كأنها حدثت له فعلا وهي لم تحصل بعد ، من قبل أنها لما كانت واقعة حتما نزلت منزلة ما قد حصل .

(٥) ( وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ) أى وأمرني بالصلاة ، إذ في إقامتها وإدامتها على الوجه الذى سنه الدين - تطهير النفوس من الأرجاس ومنع لها عن ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأمرني بالزكاة بإعطاء جزء من المال للبائس والمحتاج ، لما في ذلك من تطهير المال - ما دمت حيا في الدنيا .

(٦) ( وبرا بوالدي ) أى وجعلني برا بوالدي مطيعا لها محسنا ، وفي هذا رمز إلى نفي الريبة عنها ، إذ لو لم تكن كذلك لما أمر الرسول المعصوم بتعظيمها .

(٧) ( ولم يجعلني جبارا شقيا ) أى ولم يجعلنى جبارا مستكبرا عن عبادته ، ولا شقيا يعقوب والدنى وعدم البر بها .

(٨) ( والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ) أى والأمانة من الله على ، فلا يقدر أحد على ضرى فى هذه المواطن الثلاثة التى هى أشق ما تكون على العباد .

واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم فى المهد ، واحتج النصارى على ذلك بأن هذا من الأحداث التى لو وجدت لتوافرت الدواعى على نقلها تواترا ، لأنه من المناقب السامية والفضائل التى لها الميزة العظمى بين الناس ، ولما لم يعرف ذلك لدينا مع تتبعنا لقضائمه ، وشدة بحثنا عن الجليل والحقير من أحواله - علمنا أنه لم يوجد ، وأيضا فاليهود أظهروا عداوته حين ادعى النبوة ، فلو أنه تكلم إذ ذاك لكانت عداوتهم له أشد ، ولكان تحياهم فى قتله أعظم ، ومن حيث لم يحصل شيء من هذا علمنا أنه لم يتكلم .

والمسلمون يقولون : كفى إثباتا لذلك نص القرآن القاطع - إلى أن القتل يرشد إليه ، إذ لولا كلامه الذى دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا الحد عليها ، وربما كان الحاضرون حين كلامه عددا قليلا : ومن ثم لم يشتهر بينهم ، وربما لم يحضر اليهود كلامه ولم يسمعوا به .

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ

فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ  
وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ، وَإِلَيْنَا  
يُرْجَعُونَ (٤٠) .

### شرح المفردات

قول الحق: أى قول الصدق الذى لاشبهة فيه، يمترون: أى يشكون ويتنازعون ،  
ما كان لله أن يتخذ من ولد: أى ما ينبغي ولا يصح أن يجعل له ولدا ، صراط مستقيم:  
أى طريق لا يضل سالكه ، الأحزاب: فرق النصارى الثلاث ، مشهد: أى شهود  
وحضور ، يوم عظيم: هو يوم القيامة ، اليوم: أى فى الدنيا ، يوم الحسرة: هو يوم القيامة  
حين يندم الناس على ما فرطوا فى جنب الله ، قضى الأمر: أى فرغ من الحساب .

### الإيضاح

( ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ) أى ذلك الذى فصلت  
نبوته وذكرت مناقبه وأوصافه هو عيسى بن مريم ، نقول ذلك قول الصدق الذى  
لا ريب فيه ، لا كما يقول اليهود من أنه ساحر وحاشاه ، ولا كما تقول طائفة من  
النصارى إنه ابن الله ، ولا كما تزعم طائفة أخرى أنه هو الله ، ويخلعون عليه من  
صفات الألوهية ما هو منه براء .

ثم أكد ما دل عليه سابق الكلام من كونه ابنا لمريم لا لغيرها بقوله :  
( ما كان لله أن يتخذ من ولد ) أى لا يليق بحكمة الله وكال ألوهيته أن يتخذ  
الولد ، لأنه لو أراد خلقه بقول « كُنْ » فلا حمل ولا ولادة ، ولأن الولد إنما يرغب  
فيه ليكون حافظا لأبيه يعوله وهو حي ، وذكر أنه بعد الموت ، والله تعالى لا يحتاج  
إلى شيء من ذلك ، فالعالم كله خاضع له ، لا حاجة له إلى ولد ينفعه ، وهو  
حي أبدا .

ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار إلى تنزيهه تعالى عن ذلك فقال :  
( سبحانه ) أى تنزهه ربنا عن كل نقص من اتخاذ الولد أو غيره .

ثم ذكر علة هذا التنزيه . وبيان الوجه فيه فقال :

( إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ) أى إذا أراد شيئا فإنما يأمر به  
فيصير كما يشاء كما قال : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ  
ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » ومن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد ،  
لأن ذلك من أمارات النقص والاحتياج .

( وإن الله ربى وربكم فاعبدوه ) أى ومما أمر به عيسى قومه وهو فى مهده  
أن أخبرهم بقوله - إن الله ربى وربكم ، وأمرهم بعبادته .

( هذا صراط مستقيم ) أى هذا الذى أوصيتكم به وأخبرتكم أن الله أمرنى به  
هو الطريق المستقيم ، فمن سلكه نجا ، ومن اتبعه اهتدى ، لأنه دين الله الذى أمر  
به أنبياءه ، ومن خالفه ضل وغوى ، وسلك سبيل الردى .

ثم أشار إلى أنه مع وضوح الأمر فى شأن عيسى وأنه عبد الله ورسوله . وكلمته  
ألقاها إلى مريم وروح منه - اختلفوا فيه . كما قال :

( فاجتلف الأحزاب من بينهم ) أى اختلف قوم عيسى فى شأنه فرقا ثلاثا .  
فقال اليعقوبية : ( نسبة إلى عالم منهم يسمى يعقوب ) هو الله هبط إلى الأرض ثم  
صعد إلى السماء ، وقالت النسطورية ( نسبة إلى عالم يسمى نسطور ) . كان ابن الله  
أظهره ما شاء ثم رفعه إليه . وقالت الملكانية ( نسبة إلى الملك قسطنطين وكان  
فيلسوفاً عالماً ) إنه كان عبداً لله مخلوقاً . وهذا رأى هو الذى نصره الملك ونصره  
غيره من شيعته .

ثم توعد من كذب على الله وافترى وزعم أن له ولداً فقال :

( فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ) أى فمذاب شديد للكافرين من  
شهود ذلك اليوم وهو يوم القيامة ، لشدة بأسه وعذابه ، فالأيدي والأرجل والألسن

تشهد على أصحابها ، وقد أجل الله عقابهم إلى هذا اليوم حلما منه وثقة بقدرته عليهم ، فهو لا يجعل عقوبة من عصاه كما جاء في الصحيحين « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ( وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ) وفي الصحيحين أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله - إنهم يعملون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيههم » .

ثم عجب ربنا من قوة سمع الكفار وحدة أبصارهم يوم القيامة وقد كانوا على الضد من هذا في الدنيا فقال :

( أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ) أى لئن كان هؤلاء الكفار الذين جعلوا الله أندادا وزعموا أن له ولدا - عميا في الدنيا عن إبطار الحق والنظر إلى حجج الله التى أودعها في الكون دالة على وحدانيته وعظيم قدرته وبديع حكمته ، صمّا عن سماع أى كنبه وما دعتهم إليه الرسل مما ينفعهم في دينهم ودنياهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم - فما أسمعهم يوم قدومهم على ربهم في الآخرة ، وما أبصرهم حينئذ ، حيث لا يمدى السماع والإبصار شيئا ، ويعصون على أناملهم حسرة وأسفا ، ويتمنون على الله الأمانى ، فيودون الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل ، ولكن هيهات هيهات فقد فات الأوان .

صاح هل ريت أو سمعت براع . رد في الضرع . ما قرى في الحلاب  
ومن ثم لا يجاب لهم طلب ، بل يقال لكل أفاك أئيم « خذوه فَعَلَوْهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوْهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا . فَاسْلُكُوْهُ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ » .

ثم أمر الله نبيه أن ينذر قومه والمشركين جميعا فقال :  
( وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ) أى وأنذر الناس جميعا يوم يتحسر الظالمون على ما فرطوا في جنب الله حين فرغ من الحساب ، وذهب



أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، ونودى كل من الفريقين لايخرج من هنا بعد اليوم ، ولا موت بعد اليوم . روى الشيخان والترمذى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يأتى بالموت بهيئة كبش أملح (يخالط بياضه سواد) فينادى مناد يا أهل الجنة فيشربون وينظرون ، فيقول هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رأوه ، ثم ينادى مناد يا أهل النار فيشربون وينظرون ، فيقول هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم : هذا الموت وكلهم قد رأوه ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ « وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » . وقوله إذ قضى الأمر أى إذ فرغ من الحكم لأهل النار بالخلود فيها ، ولأهل الجنة بمقام الأبد فيها بذبح الموت . وذبحه تصوير لأن كلا من الفريقين يفهم فهما لا لبس فيه أنه لا موت بعد ذلك .

وقوله : وهم فى غفلة أى عن ذلك اليوم ، وعن حسراته وأهواله ، وقوله : وهم لا يؤمنون : أى وهم لا يصدقون بالقيامة والبعث ومجازاة الله لهم على سيئ أعمالهم بما أخبر أنه مجازيهم به .

ثم سلى رسوله وتوعد المشركين فقال :

( إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ) أى لا يحزنك أيها الرسول تكذيب المشركين لك فيما أتيتهم به من الحق ، فإن إلينا مرجعهم ومصيرهم ومصير الخلق أجمعين ، ونحن وارثو الأرض ومن عليها من الناس بعد فناءهم ، ثم نجازى كل نفس بما عملت حينئذ فنجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب .

### قصص إبراهيم عليه السلام

وَإِذْ كُرِيَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ  
لَأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢)  
يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا  
سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤)  
يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ  
وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ  
وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي  
خَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا  
أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَرَاهُ لُحْمٌ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا  
وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)

### شرح المفردات

واذ كر في الكتاب : أى اتل في هذه السورة ، صديقاً : أى مبالغا في الصدق  
لم يكذب قط ، صراطا سويا : أى طريقا مستقيما موصلا إلى نيل السعادة ، وليا :  
أى قريبا تليه ويليك في العذاب ، أراغب أنت عن آلهتي : أى أكاره لها ، لأرجمنك :  
أى لأشتمنك باللسان أو لأرجمنك بالحجارة ، مليا : أى دهرًا طويلا . قال مهمل :  
فتصدعت صم الجبال لموته وبكت عليه المراتل مليا

خفيا : أى مبالغاً فى برى وإكرامى ؛ يقال حفى به إذا اعتنى بإكرامه ، شقيا : أى خائب المسعى ، لسان صدق : أى ثناء حسنا .

### المعنى الجملى

اعلم أن المقصد من هذه السورة إثبات الوجدانية والنبوة والبعث ، والمنكرون للتوحيد فريقان : فريق أثبتوا معبودا سوى الله حيا عاقلا وهم النصارى . وفريق أثبتوا معبودا هو جناد ليس بحى ولا عاقل وهم عبدة الأصنام . والفريقان وإن اشتركا فى الضلال ، فضلال الفريق الثانى أشد ، ومن ثم قدم الكلام فى النصارى على الكلام فى عبدة الأصنام . وذكر قصص إبراهيم أولا لأنه أبو العرب وكانوا مقرين بعلو شأنه ، معترفين بدينه كما قال « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » إلى أنه تعالى نبههم إلى أن الطريق التى جروا عليها وهى التقليد بنحو قولهم « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ » تخالف طريق الاستدلال التى سار عليها أبوه إبراهيم فى حجاجه مع أبيه آزر .

### الإيضاح

(واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ ) أى واتل أيها الرسول على قومك الذين يعبدون الأصنام ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذى هم من ذريته ويدعون أنهم على ملته (وهو الصديق النبى) . حين نهى قومه عن عبادتها وقال لأبيه : ما الذى حبب إليك أن تعبد ما لا يسمع ثناءك عليه حين عبادتك له ، ولا يبصر خشوعك وخضوعك بين يديه ، ولا ينفعك فيدفع عنك ضرا إذا استنصرت به ؟ وقد سلك عليه السلام فى دعوته أجل الآداب فى المحاج ، واحتج بأروع

البرهانات ليرده عن غيه ، ويقفه على طريق الهدى والرشاد ، فاستهجن منه أن يعبد ما يستخف به كل ذى لب ، ويأبى الركون إليه كل ذى عقل ، فالعبادة هي الغاية القصوى في التعظيم ، فلا يستحقها إلا الخالق الرازق الحي الميثب المعاقب ، لا الأصنام التي لا تسمع الأصوات ، ولا تنظر الأشياء ، وتعجز عن جلب المنافع ودفع المضار .

وقصارى ما قال — إن الإنسان السميع البصير يأنف أن يعبد نظيره ، فكيف تعبد ما خرج من الألوهية بفقره وضعفه واحتياجه إلى من يصنعه ، وعن الإنسانية بفقد العقل ، وعن الحيوانية بفقد الحواس .

أما كان لك عبرة في حاجته وفقد السمع والبصر ؟

( يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا )  
 أي يا أبى إني وإن كنت من صلبك وترانى أصغر منك لأبى ولدك ، فاعلم أبى قد اطلعت من العلم على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ، فاتبعني أهدك طريقا مستقيما لازيغ فيه يوصلك إلى نيل المطلوب ، وينجيك من كل رهوب .  
 وفي قوله : قد جاءني إيماء إلى أن هذه المحاورة كانت بعد أن نبئ ، ولم يعين ما جاءه ليشمل كل ما يوصله إلى الجنة ونعيمها ، ويبعد به عن النار وعذابها .

( يا أبت لاتعبد الشيطان ) أى لاتطع الشيطان في عبادة هذه الأصنام ، فإنه هو الداعى إلى عبادتها والموسوس بها .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » وقوله : « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِىَ إِنَّا أَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا » .

ثم بين سبب النهى عن طاعته بقوله : « إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا » أى إن الشيطان عاص مستكبر عن شملته .

رحمتك ، وعنته نعمتك ، ولا ريب في أن من أطاع العاصي يكون عاصيا وجديرا بأن تسترد منه النعم ، وحقيقا بأن تنزل عليه النقم .

ثم حذرهم من سوء عاقبة ما هو فيه من عبادة الأصنام فقال :

( يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ) أى يا أبى إني أخاف لحظتى لك ، وغيرتى عليك ، أن يصيبك عذاب من الرحمن على شركك وعصيانك .  
( فتكون للشيطان وليا ) أى قربنا وتابعا له في النار .

وقصارى ذلك — إني أخاف أن تكون وليا للشيطان أى تابعا له في الدنيا ، فيمسك عذاب من الرحمن في العقبى .

ولما دعا إبراهيم أباه إلى التوحيد ، وذكر الدلائل على فساد عبادة الأوثان ، وأردف ذلك بالوعظ والالطف ، قابله أبوه بحجاب هو على ضد ذلك .

( قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟ ) أى أتكره آلهتى ولا ترغب في عبادتها يا إبراهيم ؟

( لئن لم تنته لأرجنك وأخرجنني مليا ) أى لئن لم تنته عما أنت فيه من النهي عن عبادتها والدعوة إلى مادعوتى إليه ، لأرجنك بالحجارة ، فأحذرنى وأبعد عنى بالمفارقة من الدار والبلد دهرًا طويلا .

وقد قابل الأب رفق الابن بالعنف ، فلم يقل يا بنى كما قال الابن يا أبت ، وقابل وعظه بالسفاهة ، إذ هدده بالشم أو بالضرب بالحجارة بقوله : لئن لم تنته لأرجنك .

وفى ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتأسيه له بإبراهيم فيما كان يلقى من الأذى من قومه ويقاسيه منهم ومن عمه أبى لهب من العنت والمكروه .

ولما سمع إبراهيم عليه السلام كلام أبيه أجابه بأمرين :

( ١ ) ( قال سلام عليك ) أى سلمت منى لا أصيبك بمكروه ما لم أؤمر فيك بشئ ، وهذا جواب الحليم للسفيه ، وفيه توديع ومتاركة ومقابلة للسنة بالحسنة ، وزاد على ذلك أن قال :

(٢) (سأستغفر لك ربى) أى سأطلب لك من ربى الغفران ، بأن يوفقك للهداية ، وينير بصيرتك لقبول الحق ، ويرشدك إلى مافيه الخير ، ونحو الآية قوله : «وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ» .

وقصارى دعائه — رب اهد أبى وأخرجه من الضلال .

وإنما استغفر له ، لأنه كان قد وعده أن يؤمن كما قال : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ » .

ثم ذكر أنه محبب إلى ربه فإذا هو استغفر له أجاب طلبه فقال :  
(إنه كان بى حفيا) أى إنه سبحانه للطفه بى وإنعامه على عودنى الإجابة ، فإذا أنا استغفرت لك أغاثك بمجوده وكرمه ، وغفر لك ذنوبك إن تبت إليه وأنت .  
ثم بين مايت النية عليه ، وعزم على إنفاذه فقال :

(وأعتراكم وما تدعون من دون الله) أى وأتباعك عنك وعن قومك وعما تعبدون من الأوثان والأصنام ، وأفر يدينى وأتشاغل بعبادة ربى الذى ينفعنى ويضرنى ، إذ لم تؤثر فيكم نصائحى ، وقد زوى أنه عليه السلام هاجر إلى بلاد الشام ، وفى هجرته هذه تزوج سارة .

(وأدعوربى) أى وأعبده سبحانه وحده ، وأجتنب عبادة غيره من المعبودات .  
(عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) أى لعلى لا أكون بدعاء ربى المنعم على خائب المسعى ، كما خبت أتم وشقيتم بعبادة تلك الأوثان التى لا تجيب دعاءكم ولا تنفعكم ولا تضركم .

وقد حقق ما عزم عليه ، فحقق الله رجاءه ، وأجاب دعاءه فقال :  
(فلما اعترلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ، وكلا جعلنا نبيا) أى فلما اعتزل إبراهيم أباه وقومه لم يضره ذلك لافى دين ولا دنيا ، بل نفعه إذ أبدله بهم من هم خير منهم ووهبه بنين وحفدة هم آباء الأنبياء من بنى إسرائيل

ولهم الشأن الخطير والقدر العظيم ، فقد وهبه إسحق وولد لإسحق يعقوب وقاما مقامه بعد موته وورثا منه النبوة . أما إسماعيل فتولى الله تربيته بعد نقله رضيعا إلى المسجد الحرام فأحيا تلك المشاعر العظام ، ومن ثم أفرد بالذكر بقوله : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ » الآية .

ثم صرح بما وهب لأولاده جزاء على هجرته بقوله :

( وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ) أى وجعلنا له نسلا وعقبا من الأنبياء أقر الله بهم عينيه فى حياته .

( وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا ) أى وآتيناهم من فضلنا الدينى والدنيوى ما لم تؤته أحدا من العالمين ، فآتيناهم النسل الطاهر والذرية المباركة ، وإجابة الدعاء والالطف فى القضاء والبركة فى المال والأولاد إلى نحو أولئك من خيرى الدنيا والآخرة .

( وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ) فحامدهم مذكورة فى جميع الأزمان ، سطرها الدهر على صفحاته استجابة لدعونه عليه السلام بقوله : « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » قال ابن جرير وإنما قال عليا ، لأن جميع الملل والأديان تنهى عنهم وتمدحهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .  
وقد اجتمعت لإبراهيم خلال لم تجتمع لسواه :

( ١ ) إنه اعتزل قومه حبا فى الله فاتاه الله ، من هم خير منهم ، فوهب له إسماعيل وإسحق ويعقوب .

( ٢ ) إنه تبرأ من أبيه حين تبين منه أنه عدو لله ، لاجرم سماه الله أبا المسلمين بقوله : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » .

( ٣ ) إنه تلّ ولده للجبين ، ليذبحه إطاعة لأمر الله فعده الله بذبح عظيم .

( ٤ ) إنه أسلم نفسه للنار ابتغاء رضوان الله فكانت عليه بردا وسلاما .

( ٥ ) إنه أشفق على هذه الأمة فقال : « رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ »

فَأَشْرَكَ اللَّهُ فِي الدُّعَاءِ فِي الصَّلَوَاتِ الْحُسْنَى - وَصَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ وَبَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ .  
 (٦) إِنَّهُ عَادَى كُلَّ انْخِلَاقٍ فِي اللَّهِ فَقَالَ : « فَأَيُّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ »  
 فَاتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الْكِتَابُ : « وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا » .  
 (٧) إِنَّ اللَّهَ مَدَحَهُ بِقَوْلِهِ : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » لَأَجْرِهِ جَعَلَ مَوْطِيءَ قَدَمَيْهِ مُبَارَكًا كَمَا قَالَ : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » .

### قصص موسى عليه السلام

وَإِذْ كُرِّ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١)  
 وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) .

### شرح المفردات

مخلصا : أى مختارا مصطفى ، وقربناه : أى تقرب تشريف وتكريم ،  
 والطور : هو الجبل الذى بين مصر ومدين ، ونجيا : أى مناجيا مكلما الله بلا واسطة .

### الايضاح

( وَإِذْ كُرِّ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ) أى واتل أيها الرسول على قومك ما اتصف به موسى عليه السلام من صفات الجلال والكمال التى سأقصها عليك ، ليستبين لك علو قدره وعظيم شأنه ، وتلك هى :

(١) ( إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ) أى إِنَّ اللَّهَ أَخْلَصَهُ وَاصْطَفَاهُ وَأَبْعَدَ عَنْهُ الرِّجْسَ وَطَهَرَهُ مِنْ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ كَمَا جَاءَ فِي آيَةِ الْآخِرَى : « إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي » .



(٢) (وكان رسولا نبيا) أى إن الله أرسله إلى الخلق داعيا ومبشرا ونذيرا ، والرسول هو من أرسله الله إلى الناس ومعه كتاب فيه شريعته التى أرسله بها كموسى عليه السلام ، والنبي هو الذى ينبئ عن الله ويخبر قومه عنه ، وليس معه كتاب كيوشع عليه السلام .

(٣) (ونادينا من جانب الطور الأيمن) أى وكلنا من الجانب الأيمن للطور أى الذى عن يمين موسى حين أقبل من مدين متوجها إلى مصر وأنبأناه بأنه رسولنا ثم واعدناه إليه بعد إغراق آل فرعون ورحمنا بنى إسرائيل بإزال الكتاب عليهم .  
(٤) (وقر بناه نوحيا) أى وقر بناه تقرب تشریف وإجلال حين مناجاته لنا ؛ وقد مثل حاله عليه السلام بحال من قر به الملك لمناجاته ، واصطفاه لمصاحبته ، ورفع الوسائط بينه وبينه .

وقصارى ذلك — إنه تجاوز العالم المادى وانغمس فى العالم الروحى ، فقرب من الله وارتقت نفسه حتى بلغت أقصى منها ، واستعدت للاطلاع على عالم الملكوت ، ورؤية ما غاب عن عالم المادة .

(٥) (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا) أى ووهبنا له من بعض رحمتنا معاضدة أخيه ومؤازرته ، إجابة لدعوته عليه السلام بقوله : « وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي » وحققنا ما طلبه له ، وجعلناه نبيا : « قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى » .

قال بعض السلف : ما شفع أحد فى أحد فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هرون أن يكون نبيا ، قال ابن عباس : كان هرون أكبر من موسى بأربع سنين .

### قصص إسماعيل عليه السلام

وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مِنْ ضِيَاءٍ (٥٥)

## المعنى الجملى

قدم الكلام فى موسى على الكلام فى إسماعيل ليكون الحديث عن يعقوب وبنيه فى نسق واحد دون فاصل بينهما ، وإسماعيل هو إسماعيل بن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، وقد أثنى عليه ربه بما هو أهله ووصفه بصفات هى مفخرة البشر ومنتهى السمو والفضل فى هذه الدنيا .

## الإيضاح

( وأذكر فى الكتاب إسماعيل ) أى اثنى عليها الرسول على قومك صفات أبيهم إسماعيل ، عليهم يهتدون بهديه ، ويحتذون حذوه ، ويتخلقون بمثل ماله من مناقب وفضائل منها :

( ١ ) ( إنه كان صادق الوعد ) فما وعد عدة إلا وفى بها ، حتى وعد أباه بالصبر على الذبح فقال : « سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » فصدق فى ذلك ووفا بما قال ، وامتنثل حتى جاءه القداء .

وصدق الوعد من الصفات التى حث عليها الدين ، وشدد فيها أيما تشديد فقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب : وإذا وعد أخلف . وإذا أؤتمن خان » وقد فقدت هذه الصفة من كثير من المسلمين ، فلا تجد عالما ولا جاهلا إلا وهو بمنأى عنها ولا سيما التجار والصناع والعمال .

( ٢ ) ( وكان رسولا نبيا ) أى وكان رسولا إلى جُزْءِهم الذين حاولوا بمكة معه ومع أمه ، وكان مرسلا من الله بتبليغ شريعة إبراهيم ، فنبأ بها قومه وأنذرهم وخوفهم ومن هذا يعلم أن الرسول لا يجب أن ينزل عليه كتاب مستقل .

( ٣ ) ( وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ) أى إنه بعد أن كمل نفسه اشتغل

بتكميل أمته وأقرب الناس إليه ، على نحو ما قاله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم :  
 « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » وقال : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا »  
 وقال : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا » .

(٤) ( وكان عند ربه مرضيا ) عمله ، محمودا فيما كلفه ربه ، غير مقصر في طاعته  
 فاقند أيها الرسول به ، لأنه من أجل آبائك .

### قصص إدريس عليه السلام

وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ  
 مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) .

### الإيضاح

( وإذ ذكر في الكتاب إدريس ) بالثناء عليه ، والنسبون يقولون إنه جد أبي  
 نوح عليه السلام ، ويقولون إنه أول من خط بالقلم وخط الثياب ولبس الخيط ،  
 وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من نظر في النجوم وتعلم الحساب ، وجعل الله ذلك  
 من معجزاته .

وإن تقدم العهد وطول الزمن وعدم وجود السند الصحيح الذي يعول عليه  
 في الرواية ، يجعلنا في شك من كل هذا ، فعلينا أن نكتفي بما جاء به الكتاب  
 الكريم في شأنه ، وقد وصفه الله بجملة صفات كلها مفاخر ومناقب إعظام وإجلال :  
 (١) ( إنه كان صديقا ) تقدم القول فيها .

(٢) ( نبيا ) » » »

(٣) ( ورفعناه مكانا عليا ) أي أعلينا قدره ورفعنا ذكره في الملأ ، ونحو هذا  
 قوله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ » ويرى بعض الباحثين

في الآثار المصرية أن إدريس تعريب لكلمة (أوزيريس - أموريس) وهو الذي ألف له المصريون القدماء رواية خلدت في بطون توارى عنهم ، ومنها أنه حصل بينه وبين أخيه تحاسد وشقاق أدى إلى قتله وتقطيعه إرباً إرباً ، فجمعت امرأته تلك القطع وحفظتها وحفظتها ، وجعلوه إلها بعد أن كان مصلحاً عظيماً .

وهذا القصص الخرافي جعل المصريين يُعَبِّوْنَ بتحنيط الموتى ، وقد أفاد هذا العمل صناعة التحنيط ورقاها حتى صارت مضرِب الأمثال في الخافقين .

وقد كان الملك والدين في عهد تلك الدولة أمراً واحداً ، فالملك يجمع بين شؤون الدين والدنيا ، فمن عصى الملك فقد عصى الله .

ويعتقدون أن أوزيريس صعد إلى السماء وصار إلى العالم العلوي وله عرش عظيم في السماء ، ويتمتع بأعظم الخيرات ، وكل من حفظ جسمه ووزنت أعماله بعد الموت وحكم القضاة وهم اثنان وأربعون قاضياً بأن حسناته غلبت سيئاته - يلحق بأوزيريس وهذا النبي الذي جعلوه إلهاً بعد ذلك هو الذي علمهم العلوم والمعارف وينسبون الفضل في ذلك إليه .

وقد ارتقت الأمة المصرية في العلوم والمعارف إلى حد لم تصل إليه أمة أخرى لافي القديم ولا في الحديث ، وخدمت النوع البشري خدمة جليلة ، فارتفع إدريس إلى السماء راجع إلى رقي تعاليمه وانتفاع أمته بها ، فالنبي بأمرته ، ومن ثم تجد آثار أمته بادية للعيان بعد أن كانت خافية عن الأنظار .

وبعد أن ذكر الله أولئك المرسلين أخذ يعدد مناقبهم ويذكر صفاتهم فقال :

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِنْ حَمَلْنَا  
مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِنْ هَاجِلَاتِنَا إِذَا تُتْلَى  
عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)

## شرح المفردات

إسرائيل : يعقوب عليه السلام ، واجتباة : اصطفاة واختاره ، والسجد ، واحد  
ساجد ، والبكى : واحد بكاء ، يقال بكى بكاء ، وبكى : قال الخليل : إذا قصرت  
البكاء فهو مثل الحزن أى لاصوت معه كما قال الشاعر :

بكت عيني وجثى لها بكاءها وما يغنى البكاء ولا العويل

## المعنى الجملى

بعد أن أفرد الله كل رسول من رساله العشرة الذين سبق ذكرهم بالثناء عليه  
بما هو جدير به - أردفه بذكر بعض ما جازاهم به من النعم ، فقد هدانا إلى سبل  
الخير واصطفاهم من سائر خلقه .

## الإيضاح

( أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ) أى هؤلاء النبيون الذين قصصت  
أنباءهم عليك أيها الرسول هم الذين أنعم الله عليهم بما خصهم به من مزيد القرب  
إليه ، وعظيم المنزلة لديه ، وهداهم إلى سبيل الرشاد ، ورفع ذكرهم بين العباد .

( من ذرية آدم ) أبى البشر الأول .

( ومن حملنا مع نوح ) أى ومن ذرية من حملنا مع نوح أبى البشر الثانى  
فى الفلك كإبراهيم خليل الرحمن .

( ومن ذرية إبراهيم ) وهم إسحاق ويعقوب وإسماعيل .

( وإسرائيل ) أى ومن ذرية إسرائيل أى يعقوب عليه السلام ، وهم : موسى  
وهرون وذاكرى ويعسى وأمه مريم .

( ومن هدينا واجتبتنا ) أى ومن جملة من هدينا إلى سبيل الحق ، واجتبتناهم  
للنبوة والكرامة .

(إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) أى إذا تتلى على هؤلاء الأنبياء الذين أنعم الله عليهم أدلة الله وحججه التي أنزلها عليهم فى كتبه - خروا لله سجدا استكانة له وتذلا وخضوعا لأمره وانقيادا ، وهم باكون خشية منه وحذرا من عقابه .

قال صالح المري : قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال : يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وفى الحديث « أتولوا القرآن وابكوا » ، فإن لم تبكوا فتبكوا . وعن ابن عباس : إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه . وقصارى ذلك - إنه سبحانه أبان علو أمرهم فى الدين والنسب والقرب منه .

### جزاء خلف هؤلاء ممن ضل وغوى

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)

### شرح المفردات

الخلف : (يسكون اللام) عقب السوء ، ويقال لعقب الخير والصدق خلف (يفتح اللام) ، أضاعوا الصلاة : أى تركوها بقتاتا ، اتبعوا الشهوات : أى اتبعوا فى المعاصى والذات ، غيًّا : أى ضلالا ، والمراد يلقون جزاءه فى نار جهنم .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حزب السعداء وهم الأنبياء ومن تبعهم بإحسان ممن قاموا بخدود الدين فاتبعوا أوامره وأدوا فرائضه وتركوا نواهيه - أردف هذا بذكر من

خلفهم من أضاعوا واجباته ، وأقبلوا على شهوات الدنيا ولذاتها ، وأعقب هذا بذكر ما ينالهم من النكال والوبال في الآخرة إلا من تاب وأتاب فإن الله يقبل توبته ، ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولا ينقصه شيئاً من جزاء أعماله . قال مجاهد : نزلت هذه الآية في قوم من هذه الأمة يتراكبون في الطرق كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس ولا يخافون من الله في السماء ، وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم في جماعة آخرين عن أبي سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله صلى عليه وسلم وتلا هذه الآية قال : « يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يحدو تراقيمهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سيهلك من أمى أهل الكتاب وأهل اللين » قلت يا رسول الله ما أهل الكتاب ؟ قال : « قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا » قلت وما أهل اللين ؟ قال : « قوم يتبعون الشهوات ، ويضيعون الصلوات » .

### الإيضاح

( خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ) أى فجاء من بعد الأنبياء الذين ذكروا - خلف سوء خلفهم في الأرض كاليهود والنصارى ومن على شاكلتهم من أهل الضلال ، إذ تركوا الصلوات المفروضة عليهم ، وآثروا شهواتهم على طاعة الله ، فانكبوا على شرب الخمر ، وشهادة الزور ، ولعب الميسر ، وإتيان الفاحشة خفية وعلانية .

ثم ذكر عاقبة أعمالهم وسوء ما لهم فقال :

( فسوف يلقون غياً ) أى شراً وخسراً لا يلهيهم أداء واجبات الدين وإنهما كنهم في المعاصي والآثام .

(إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة) أى سكن من آمنوا إلى ربهم ، وأقلعوا عن ذنبهم ، وآمنوا بالله ورسوله وأطاعوه فيما أمر به وأدوا فرائضه ، فأولئك يدخلهم ربهم جنته ، ويغفر لهم حوْبَاتِهِمْ ، فالتوبة تجب ما قبلها كما جاء فى الحديث « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

(ولا يظلمون شيئاً) أى ولا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم ، إذ أفعالهم السابقة ذهبت هباءً وصارت نسياً منسياً بكرم اللطيف الخبير، وعظيم حلمه على عباده .  
ولما ذكر أن التائب يدخل الجنة وصف هذه الجنة بأمور فقال :

جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) .

### شرح المفردات

جنت عدن : أى جنات إقامة، وهذا وصف لها بالدوام ، بالغيب ، أى وهى غائبة عنهم ، وعده ، أى ما وعده من الجنات ، مأتياً ، أى يأتیه من وعده به لا محالة ، لغوا أى فضولا من الكلام لا طائل تحته ، سلاماً ، أى سلاماً من الله أو من الملائكة .

### المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه أنه يدخل التائبين الجنة - وصف هذه الجنة بجملة أوصاف كلها غاية فى تعظيم أمرها ، وشريف قدرها ، وجليل خطرها .

### الإيضاح

أوصاف هذه الجنة :

(١) جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً) أى هذه الجنات هى جنات إقامة دأمة لا كجنات الدنيا ، وقد وعد بها المتقين وهى غائبة عنهم لم يشاهدوها ، ووعد الله لا يخلف ، فهم آتوها لا محالة .



(٢) (لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاماً) أى لا يسمع المبتقون فيها فضول القول وما لا طائل تحته ، ولكن يسمعون تسليماً اللائكة عليهم بما يشعرون بالأمان والاطمئنان ، وهما منتهى السعادة ، والدنيا لا طمأنينة فيها ولا استقرار فلا سعادة فيها ولا نعيم ، ومن ثم طلب إلينا أن ندعو فى الصلاة بالأمان ونقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

ولا شك أن تكرار هذه العبارة فى الصلوات يحدث فى النفس أثراً إذا أدركت مغزاها ، ويشعر بأن الله لم يخلق العالم إلا لغاية واحدة وهى الطمأنينة ، ولا تكون إلا إذا أمن المرء الفقر والمرض والشيخوخة ، وأنى لنا بذلك فى الدنيا ؟ وإنما تكون الطمأنينة لعباده المتقين فى الآخرة ، وهذا المعنى هو الذى تترجم عنه الجملة ( السلام عليكم ) أى إن الأمان سيحققه الله لكم بأن يأمن بعضكم بعضاً فى الدنيا وفى الآخرة بالخروج من جميع المآزق .

وهذا الدعاء أمنية من أمانى النفوس لا تتحقق إلا إذا أمن الإنسان العذاب والعقاب وانتهى الحساب وارتفع السوء كالمريض والموت والفقر والدل يوم القيامة .

(٣) (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشا) أى ولهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب فى قدر وقت البكرة ووقت العشى من نهار أيام الدنيا أى إن الذى بين غداهم وعشايمهم فى الجنة قدر ما بين غدا أحدنا فى الدنيا وعشايمه .

وخلاصة ذلك — إنه لا بكرة فى الجنة ولا عشى ، إذ لا ليل ولا نهار ، وإنما يؤتون بأرزاقهم فى مقدار طرفى النهار كما كانوا فى الدنيا .

ولما ذكر أن هذه الجنة تخالف جنات الدنيا — ذكر الدواعى التى توجب استحقاقها فقال :

( تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقياً ) أى هذه الجنة التى وصفت بهذه الصفات الشريفة ، نورثها عبادنا المتقين الذين يطيعون الله فى السر والعلن ،

ويحمدونه على السراء والضراء ، والمراد أننا نجعلها ملكاً لهم كملك الميراث الذي هو أقوى تمليك ، وجاء بمعنى الآية قوله : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ جَاهِدُونَ » إلى أن قال : « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

وَمَا تَنْزِيلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

### شرح المفردات

النزول : النزول وقتاً غيباً وقت ، ما بين أيدينا : أى ما قدامنا من الزمان المستقبل ، وما خلفنا : أى من الزمان الماضى ، وما بين ذلك : هو الزمان الحاضر ، نسيًّا ، أى تاركاً لك ، واصطبر عليها ، أى اثبت لشدائد العبادة وما فيها من المشاق كما تقول للمبارز : اصطبر لقرينك ، أى اثبت له فيما يورد عليك من حملاته ، سميًّا أى مثلاً ونظيراً .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام تثبيتاً له صلى الله عليه وسلم وأعقبه بذكر ما أحدثه الخلف بعدهم ، وذكر جزاء الفريقين ، أعقب ذلك بقصص تأخر نزول جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ زعم المشركون أن الله ودّعه وقلاه ، وقد رد عليهم زعمهم وأبان لهم أن الأمر على غير ما زعموا .

روى أن جبريل عليه السلام احتبس عنه صلى الله عليه وسلم أياماً حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ، ولم يذكر عليه السلام كيف يجيب ؟

فحزن واشتد عليه ذلك ، وقال المشركون إن ربه ودعه وقلاه ، فلما نزل قال له عليه السلام يا جبريل احتبست عني حتى ساء ظني ، واشتقت إليك ، فقال إني إليك لأشوق ، ولستني عبد مأمور إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست ، وأنزل الله هذه الآية ، وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت هذه الآية إلى آخرها .

## الإيضاح

( وما تنزل إلا بأمر ربك ) أى وما تنزل الملائكة بالوحي على الرسل وقتا بعد وقت إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته ، وتدعو إليه مصلحة عباده ، ويكون فيه الخير لهم في دينهم ودنياهم .  
ثم علل الملك ذلك بقوله :

( له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ) أى إنه تعالى هو المدبر لنا في جميع الأزمنة مستقبليها وماضيها وحاضرها .

وقضارى ذلك — إن أمرنا موكلون إلى الله تعالى يتصرف فينا على حسب مشيئته وإرادته لا اعتراض لأحد عليه ، فلا تنتقل من مكان إلى مكان ، ولا تنزل في زمان دون زمان إلا بإذنه عز وجل .

( وما كان ربك نسيا ) أى إنه تعالى لإحاطة علمه بملكه ، لا يطرأ عليه غفلة ولا نسيان حتى يغفل عنك وعن الإيحاء إليك ، وإنما كان تأخير الوحي لحكمة علمها جل شأنه . أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني في جملة آخرين عن أبي الدرداء مرفوعا قال « ما أجل الله في كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا ثم تلا : « وما كان ربك نسيا » .

ثم أقام الدليل على ما تقدم بقوله :

( رب السموات والأرض وما بينهما ) فلا يجوز عليه النسيان ، فإن من بيده ملكوت كل شيء ، كيف يتصور أن تحوم حوله الغفلة والنسيان .

ثم بين ما ينبغي للمرء أن يفعله بعد أن عرف هذا فقال :

( فاعبده واصطبر لعبادته ) أى وإذ قد علمت أنه الرب المسيطر على ما فى السموات والأرض وما بينهما ، القابض على أعتقتهما ، فاعبده ودم على مشاق العبادة وشدايدها ، وإياك أن يصدك عنها ما يحدث من إبطاء الوحي وتقول المشركين الخرافيين عن سببه :

ثم أكد الأمر بالعبادة بقوله :

( هل تعلم له سميا ؟ ) أى هل تعلم له شيئا ومثلا يقتضى العبادة لكونه متعنا متفضلا بحليل النعم وحقيقتها ، ومن ثم يجب تعظيمه غاية التعظيم بالاعتراف برؤسيته ، والخضوع لسلطانه .

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ  
الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ  
وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ  
شِيعَةٍ أَهْبَآءَهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى  
بِهَآ صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١)  
ثُمَّ لَنُنْجِيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) .

### شرح المفردات

يذكر : أى يتذكر ويفكر ، لنحشرهم : أى لنجمعهم ، جثيا ، واحد من جاث وهو البارك على ركبتيه ، شيعه : أى جماعة تعاونت على الباطل وتشابعت عليه ،

عتيا : أى تكبرا ومجاوزة للحد ، صلياً : أى دخولا فيها من صلى بالنار إذا قاسى حرها ، واردها : أى بار عليها ، حتما : أى واجبا ، مقضيا : أى قضى بوقوعه البتة .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالعبادة والمصابرة عليها على ما فيها من مشاق وشدائد - أبان فائدة ذلك وهي أنها تنجيهم يوم الحشر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وهو يوم لا ريب فيه ولا وجه لإنكاره ، فإن إعادة الإنسان أهون من بدنه ، ثم ذكر ما يلقاه الكافرون يومئذ من اللذ والهوان ، ثم أردف ذلك ببيان أن جميع الخلائق ترد على النار ولا يتجو منها إلا من اتقى ربه وأخلص في عمله .

روى الكلبي أنها نزلت في أبي بن خلف . أخذ عظما باليا فجعل يفتنه بيده ويذريه في الريح ويقول : زعم فلان أنا تبعث بعد أن نموت ونكون مثل هذا ، إن هذا لن يكون أبدا .

### الإيضاح

( ويقول الإنسان أنذا مات لسوف أخرج حيا ) أى ويقول الكافر الذى لا يصدق بالبعث بعد الموت متعجبا مستبعدا : أأخرج حيا مرة أخرى فأبعث بعد الموت والبلى ؟ وأسند القول إلى الكفرة جميعا وإن لم يقل هذه المقالة إلا بعضهم من حيث رضاهم عن هذا المقال وسكوتهم عن إنكاره كما سلف لك من قبل .

ثم أقام الدليل على صحة ذلك بقوله : ( أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ؟ ) أى أولا يتفكر الإنسان المجترى على ربه المتفكر لتلك الإعادة بعد الفناء ، وللأحياء بعد الممات ،

أن الله خلقه من قبل مائة ، فأنشأ بشرا سويا من غير شيء ، فليعتبر بذلك وليعلم أن من أنشأ كذلك لا يعجز عن إحيائه بعد مائة ، وإيجاده بعد فناءه .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ : أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أُنْشِئْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » وقوله : « وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وقوله : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وفي الحديث القدسي : « يقول الله تعالى : كذبتني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني ، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني ، أما تكذبيني إياي فقله لن يعيدني كما بدأتي ، وليس أول الخلق بأهون علي من آخره ، وأما آذاه إياي فقله : إن لي ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

ولما قرر القضية وأقام عليها الدليل أردفها بالتهديد من وجوه فقال :

(١) (فوربك لنحضرنهم والشياطين) أقسم الرب بنفسه الكريمة أنه حاشرهم

جميعا وشياطينهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله .

وفي قسمه على جمعهم وسوقهم إلى المحشر دون القسم على بعضهم ، تنبيه إلى أن ذلك غنى عن الإثبات بعد أن أقام البرهان على إمكانه ، وإنما الذي يحتاج إلى ذلك ما بعده من الشدائد والأهوال .

روى أن الكافرين يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين كانوا يغفونهم ،

كل منهم مع شيطانهم .

(٢) (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) أي ثم لنحضرنهم بعد طول الوقوف

حول جهنم من خارجها - جاثين على ركبهم إهانة لهم ، أو لعجزهم عن القيام لما حل بهم من المكارة والأهوال .

(٣) (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا) أي لنأخذن من

كل جماعة منهم من هو أشد على الرحمن الذي غفرهم بإحسانه - تكبرا وبجاوزة للحدود التي سنّها لخلقها .

وقصارى ذلك - إن الله تعالى يحضرهم أولا حول جهنم ، ثم يميز بعضهم عن بعض ، فمن كان أشدهم تمردا في كفره ، خص بعذاب أعظم ، فمذاب الضال المضل فوق عذاب من يضل بالتبع غيره .

( ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ) أى ثم لنحن العالمون بظواهر أعمالهم وبواطنها ، وبما اجتروحوا من السيئات ، وبما دسوا به أنفسهم من الموبقات ، من هم أولى بجهنم دخولا واحترقا ، فنبدا بهم أولا ثم بمن يليهم .

وخلاصة هذا - إنهم جميعا يستحقون العذاب ، لكننا ندخلهم في جهنم على حسب عقوبتهم وتجبرهم في كفرهم .

ثم خاطب سبحانه الناس جميعا فقال :

( وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ) أى وما أحد منكم أيها الناس إلا يدنو من جهنم ويصير حولها ، قد قضى ربك بذلك وجعله أمرا محتوما مفروغا منه .

روى السدى عن ابن مسعود قال : « يرد الناس جميعا الصراط ، ويقومون حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ... » في حديث طويل ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرد الناس كلهم ثم يصدرون بأعمالهم .

( ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ) أى إذا مر الخلاق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة على قدر ما اجتروحوا من الآثام والذنوب - نجى الله المتقين منها على حسب أعمالهم ، وترك الكافرين جانين على الركب كما جاءوا .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَيْ  
الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ  
هُمُ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرَثِيًّا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ  
مَدَدًا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ  
شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) وَيُرِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى، وَالْبَاقِيَاتُ  
الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦).

### شرح المفردات

بينات : أى ظاهرات الإعجاز ، مقاما : أى مكانا ومنزلا ، نديا : أى مجلسا  
ومجتمعما ، ومثله النادى ؛ وقيل هو المجلس الذى يجتمع فيه لحادثة أو مشورة ومنه دار  
الندوة التى كان المشركون يتشاورون فيها فى أمورهم ، والقرن : أهل كل عصر ، والأثان :  
متاع البيت من الفرش والثياب وغيرها ولا واحد له ، والرئى المنظر والمراد به النظارة  
والحسن ، فليمدد : أى فليمهله بطول العمر والتمكن من سائر التصرفات ، جندا :  
أى أنصارا ، والباقيات الصالحات : أى الطاعات التى تبقى آثارها ، مردّا : أى  
مرجعا وعاقبة .

### المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث بعد الفناء ،  
والعودة إلى حياة أخرى - أتبعه بذكر شبهة أخرى قالوها وعارضوا بها حجة الله  
التي يشهد بصحتها كل منصف ، ويعتقدها من له أدنى مُسكة من عقل .  
تلك أنهم قالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا  
أحسن وأطيب من حالنا ، من قبل أن الحكيم لا يجدر به أن يوقع المخلصين من



أوليائه في الذل والمهانة ، وأعداءه في العز والراحة ، لكننا نجد الأمر على العكس من هذا ، فإننا نحن الذين يتمتعون برفاهية العيش والرخاء والنعيم ، وأنتم في ضنك وفقر وخوف وذل ، فهذا دليل على أنا على الحق وأنتم على الباطل .

وقد رد الله عليهم مقاتلهم بأن الكافرين قبلكم وهم كانوا أحسن منكم حالا ، وأكثر مالا ، قد أبادهم الله وأهلكهم بعذاب الاستئصال ، فدل هذا على أن نعيم الدنيا لا يرشد إلى محبة الله لمن أوتوه ، ولا إلى أنهم مصطفون له من بين خلقه .

روى أن قائل هذه المقالة النضر بن الحرث ومن على شاكلته من قريش ، للمؤمنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا في خشونة من العيش وفي رثالة من الثياب ، وهم كانوا يرحلون شعورهم ويلبسون فاخر الثياب .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية ببيان مآل الفريقين يوم القيامة ، وأن ما كان للمشركين في الدنيا من المال وسعة الرزق فإنما ذلك استدراج وإمهال من الله لهم ، ثم يلقون النكال والوبال في جهنم وبئس القرار .

## الإيضاح

( وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟ ) أي وإذا تتلى على المشركين آياتنا واضحات الدلالة قالوا مفتخرين على المؤمنين ، ويحتجّون على صحة ما هم عليه من الباطل ، أي الفريقين منا ومنكم أوسع عيشا وأنعم بالا وأفضل مسكنا وأحسن مجلسا وأجمع عددا ؟ أنحن أم أنتم ؟ فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك المستخفون المستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق ؟

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ » .

وقد رد الله عليهم شبهتهم بقوله :

(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورثيا ) أى وكم من أمة من الكاذبين قد أهلكناهم بكفرهم وقد كانوا أحسن من هؤلاء أموالا وأثاثا ومناظر ذات جمال وزخرف .

وإخلاصة هذا — إن كثيرا ممن كانوا أعظم منكم نعمة في الدنيا كعاد وثمود وأضرابهم من الأمم العاتية قد أهلكهم الله ، فلو صدق ما تدعون من أن النعمة في الدنيا تدل على الكرامة عند الله ، ما أهلك أحدا من المتنعين بها .

وفي هذا تهديد ووعد لا يخفى ، وكأنه قيل فليرتقب هؤلاء ، فسيحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثالات .

ثم أمر الله نبيه أن يحيب هؤلاء المفتخرين بقوله :

( قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا . حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما السعادة فسيصدون من هو شر مكانا وأضعف جندا ) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المدعين أنهم على الحق ، وأنكم على الباطل : إن ما افتخروا به من زخرف الدنيا وزينتها لا يدل على حسن الحال في الآخرة ، فقد جرت سنة الله بأن من كانوا منهمكين في الضلالة ، مرخين لأنفسهم الأعنة ، في سلوك المعاصي والآثام ، يبسط لهم نعيم الدنيا ، ويطيب عيشهم فيها ، ويمتعهم بأنواع اللذات ، ولا يزال يهولهم استدراجا لهم إلى أن يشاهدوا ما وعدوا به رأى العين ، إما عذابا في الدنيا كما حصل يوم بدر ، وإما محجى الساعة وهم بها مكذبون ، وعن الاستعداد لها مفرطون ، وإذا ذلك يعلمون من هو شر من الفريقين مكانا ، وأن الأمر على عكس ما كانوا يقدرون ، وسيزنون أنهم شر مكانا وأضعف جندا وأقل ناصرا من المؤمنين ، وهذا رد على قولهم ( أى الفريقين خير مقامنا وأحسن نديا ) .

وقضارى ذلك — إن من كان في الضلالة فسنه الله أن يمد له ويستدرجه ليزداد إثما ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر إما بعذاب في الدنيا يأتيه من حيث

لا يحتسب ، وإما بعذاب في الآخرة لا قبل له بدفعه ، وحينئذ يعلم أنه كان في ضلال مبين ، ويندم ، ولات ساعة مندم .

ندم البغاة ولات ساعة مندم      والبغى مرتع مبتغيه وخيم  
ولا يجد عن النار محيصا ولا مهربا .

( ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ) أى ويزيد الله الذين اهتدوا إلى الإيمان هدى بما ينزل عليهم من الآيات ، عوضا عما منعوا من زينة الدنيا كرامة لهم من ربهم ، كما بسط للضالين فيها لموانعهم عليه .

ومجمل هذا — إن من كان في الضلالة من الفريقين يمهله الله وينفس له في حياته ليزداد في الإثم والغى ويجمع له عذاب الدارين ، ومن كان في الهداية منهما يزد الله في هدايته ويجمع له خيرى السعادتين .

( والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا ) أى والطاعات التى بها تشرح الصدور ، وتستثير القلوب ، وتصل إلى القرب من الله ، ونيل رضوان — خير عند ربك منفعة وعاقبة مما متع به أولئك الكفرة من النعم الفانية التى يفخرون بها من مال وولد وجاه ومنافع تحصل منها ، فإن عاقبة الأولين السعادة الأبدية ، وعاقبة أولئك الحسرة الدائمة والعذاب المقيم .

وخلاصة هذا — إن الطاعات التى يبقى ثوابها لأهلها خير عند ربهم جزاء وخير عاقبة من مقامات هؤلاء المشركين بالله وأنديتهم التى بها يفخرون على أهل الإيمان فى الدنيا .

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اِتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَتَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَعُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنُرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) .

## شرح المفردات

أطلع الغيب ؟ من قوهم اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه : أى أظهر له علم الغيب ؟ وهذا : أى عملاً صالحاً ، كلاً : كلمة زجر وتنبية إلى الخطأ ، سنكتب ما يقول أى سنظهر له أنا كتبنا ، وعند له من العذاب : أى سنطيل له العذاب الذى يستحقه وورثه ما يقول : أى نسلب ذلك منه بموته ونأخذه أخذ الوارث ما يرثه ، والمراد بما يقول مدلوله ومصداقه ، وهو ما أوتيته فى الدنيا من المال والولد ، فردا : أى لا يصحبه مال ولا ولد .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الدلائل على صحة البعث ثم أورد شبهة المشركين له وأجاب عنها بما فيه مقنع لكل ذى لب - قفى على ذلك بذكر مقاتلهم التى قالوها استهزاء وطعناً فى القول بالحشر والبعث .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى والطبرانى وابن حبان عن خباب بن الأرت قال : « كنت رجلاً قيناً (حداداً) وكان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت لا والله لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تبعث ، قال فأتى إذا مت ثم بعثت جئتني ولى ثم مال وولد فأعطيك ، فأنزل الله تعالى : « أَفَرَأَيْتَ الْآيَةَ » .

## الإيضاح

( أفرايت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالا وولداً ) أى انظر إلى حال هذا الكافر وأعجب من مقاتله الشنيعة وجرأته على الله ، إذ قال لأعطين فى الآخرة مالا وولداً .

ولما كان ما ادعاه لأعلم له به إلا بأحد أمرين - الاطلاع على الغيب أو اتخاذ العمد - ولم يحصل له واحد منهما ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

( أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا ؟ ) أى إن ما ادعى أنه سيكون ، لا يعلم إلا بأحد الأمرين : إما علم الغيب ، وإما عهد من عالم الغيب ، فبأيهما هو قد وصل إليه ؟ .

وقصارى ذلك — أو قد بلغ من عظم شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذى انفرد به الواحد القهار ، أم أعطاه الله عهدا موثقا وقال له : إن ذلك كائن لاحالة ؟ . ثم زاد فى تأكيد خطئه وهدده بقوله :

( كلا سنكتب ما يقول ونمدّ له من العذاب مدا ) أى ليس الأمر كذلك ، ما اطلع على الغيب فعلم صدق ما يقول وحقيقة ما يذكر ، ولا اتخذ عند الرحمن عهدا موثقا بذلك ، بل كذب وكفر بربه ، وسنظهر له أننا كتبنا قوله ، ونزيده من العذاب فى جهنم بقليله الكذب والباطل فى الدنيا زيادة على كفره بالله وتكذيبه برسوله .

( ونرثه ما يقول ويأتينا فردا ) أى ونسلبه ما عنده من المال والولد ونأخذه منه أخذ الوارث ما يرث ، ويأتينا إذ ذاك فردا لا يصحبه مال ولا ولد مما كان له فى الدنيا .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّهُمْ عِدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧)

### شرح المفردات

العز : المنعة والقوة ، سيكفرون : أى سيجحدون ، ضدا : أى أعداء وأعوانا عليهم ، والأزّ والهرز والاستفزاز : شدة الإزعاج ؛ والمراد الإغراء على المعاصى والتبذير

لها بالتسويلات ، وتحبيب الشهوات ، فلا تعجل عليهم : أى فلا تطلب الاستعجال بهلاكهم ، الوفد والوفود والأوفاد : واحدكم وافد ، وهم القوم يقدمون على الملوك يستعجزون الحوائج ، والمراد يقدمون مكرمين مبجلين ركبانا ، إلى الرحمن : أى إلى دار كرامته وهى الجنة ، وردا : أى مشاة مهانين باستخفاف واحتقار كأنهم نعم تساق إلى الماء ، والمراد بالعهدة شهادة أن لا إله الا الله والتبرئ من الحول والقوة وعدم رجاء أحد إلا الله

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكار المشركين للبعث مع قيام الدليل على إمكانه بما يشاهد من أمر الخلق فى النشأة الأولى - أردف ذلك بالرد على عباد الأصنام الذين اتخذوا أصنامهم آلهة ليعتزوا بهم يوم القيامة عند ربهم ، ويكونوا شفعاء لهم لديه ، فبين أنهم سيكونون لهم أعداء ، وأنه ما جرائهم على تلك الغواية إلا وسوسة الشيطان لهم ، ثم طلب إلى رسوله ألا يستعجل المشركين فإنما هى أنفاس معدودات ثم يهلكون ، ثم ذكر ما يحوط المؤمنون من السكرامة حين وفودهم إلى ربهم ، وما يحيق بالمشركين من الإهانة حين يردون عليه .

### الإيضاح

( واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ) أى واتخذ المشركون من قومك أيها الرسول - آلهة يعبدونها من دون الله ، ليعتزوا بهم ويجعلوهم شفعاء عند ربهم يقرّبونهم إليه .

( كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ) أى ليس الأمر كما ظنوا وأما فى أنها تنفذهم من عذاب الله وتنجيهم منه ، بل ستجحد الآلهة عبادتهم بإهم وينطق الله من لم يكن ناطقا منهم ، فيقولون ما عبدتمونا كما قال سبحانه :

« وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ ، قَالُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلُ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ » وقال : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا » وقال حاكيا عنهم : « مَا كَانُوا إِلَّا نَا يَعْبُدُونَ » ويكونون أعداء لهم وأعوانا عليهم إذ يلعنونهم ويتبرءون منهم .

وبعد أن ذكر سبحانه ما لهؤلاء الكفار مع آلهتهم فى الآخرة ، ذكر ما لهم مع الشياطين فى الدنيا ، وأنهم يتولونهم وينقادون لهم فقال :

( ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ) أى ألم تعلم أنا سلطاننا الشياطين على الكافرين ومكناهم من إضلالهم ، فهم يغرونهم بالمعاصى ، ويهيجونهم على الوقوع فيها .

وخلاصة ما سلف — تعجيب رسوله صلى الله عليه وسلم مما حكته الآيات السالفة عن هؤلاء الكفرة من تماديهم فى الغى ، وانهما كهم فى الضلال ، وتصميمهم على الكفر بدون رادع ولا زاجر ، ومدافعتهم للحق مع وضوحه ، وتنبيه له إلى أن ذلك إنما كان بإضلال الشياطين وإغوائهم ، لا لقصور فى التبليغ .

وفى هذا تسليمة للرسول صلى الله عليه وسلم وتهوين للأمر على نفسه .  
( فلا تعجل عليهم ) بأن تطلب إهلاكهم وإبادتهم بعذاب الاستئصال حتى تطهر الأرض من خبائث أعمالهم .

ثم علل هذا النهى بأن حين هلاكهم قريب فقال :  
( إنما نعدّ لهم عداً ) أى إنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس قليلة نعدّها عداً ، وعن ابن عباس أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : آخر العدد خروج نفسك . آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخول قبرك . وعن ابن السكّ أنه كان عند المأمون قرأ الآية ثم قال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفذ :

إن الحبيب من الأحباب مختلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس  
وكيف يفرح بالدنيا ولذتها ففى يعد عليه اللفظ والنفس

وقد أفصح عن هذا شاعر مصر أحمد بك شوقي فقال :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

ثم بين سبحانه ما سيظهر في ذلك اليوم من الفصل بين المتقين والمجرمين في كيفية الحشر فقال :

( يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ) أى واذا ذكر أيها الرسول لقومك ، يوم نحشر المتقين إلى دار الكرامة ركبانا كما يند الوافدون على أبواب الملوك ينتظرون إكرامهم وإنعامهم .

وقد أثر عن على أنه قال : والله ما يحشر الوفد على أرجلهم ، ولا يساقون سوقاً ولكنهم يؤتون بنوق لم ير الخلائق مثلاً ، وعليها رجال الذهب ، وأزمعها الزبرجد ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة - وهذا تمثيل لحالهم في عزهم وعظمتهم وإكرام ربهم لهم .

( ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ) أى ونسوق الكافرين بالله إلى جهنم مشاة قد تقطعت أعناقهم من العطش ، فهم كاللدواب التي ترد الماء .

( لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ) أى لا يملك العباد الشفاعة إلا من اتخذ عهداً عند الله بأن أعد لها عدتها فكان في الدنيا هادياً مصلحاً ، فيكون في الآخرة شافعاً مشفعاً ، لا جرم أن ينالها في الآخرة على مقدار هدايته في الدنيا ، فالشفاعة حينئذ لا تكون إلا للأنبياء والعلماء والشهداء على مقدار اتباعهم .

روى أن ابن مسعود قرأ هذه الآية ثم قال : أُنْخِذُ عند الله عهداً ، فإن الله يقول يوم القيامة : من كان له عند الله عهد فليقيم ، قالوا يا أبا عبد الرحمن فعلمنا ، قال : قولوا « اللهم فاطر السموات الأرض عالم الغيب والشهادة ، إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ألا تكلفني إلى عمل يقر بى من الشر ويباعدنى من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لى عندك عهداً تؤديه إلى يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد » .



وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أدخل على مؤمن سرورا فقد سرنى ، ومن سرنى فقد اتخذ عند الرحمن عهدا فلا تمسه النار إن الله لا يخلف الميعاد » ، وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئا جاء وله عند الله عهد أن لا يعذبه ، ومن جاء قد انتقص منها شيئا فليس له عند الله عهد ، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه » .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) .

### شرح المفردات

جئتم : أى فعلتم ، والإدّ (بالكسر والفتح) المنكر العظيم ، والإداة : الشدة يقال أدنى الأمر أدنى : أثقلنى وعظم علىّ ، والتفطر : التشقق ، وتخّر : تسقط وتهدم ، دعوا : أى نسبوا وأثبتوا ، قال شاعرهم :

إنا بنى نهشل لاندعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

عبدا : أى منقادا خاضعا كما يفعل العبيد ، أحصاهم : عدّهم وأحاط بهم ، وعدّهم عدّا : أى عدّ أشخاصهم ، فردا : أى منفردا لاشيء معه من الأنصار والأتباع .

## المعنى الجملى

بعد أن رد على عبدة الأوثان وأثبت بقاطع الأدلة أنهم فى ضلالهم يعمهون ، وأنهم عن الحق معرضون - أردف ذلك بالرد على من أثبت له الولد كاليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، والمشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

## الإيضاح

( وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إداً . ) أى وقال الكافرون بالله : إن للرحمن ولدا ، لقد جئتم أيها القائلون بمقالكم هذا شيئا منكرا عظيما يدل على الجراءة على الله وكال القحّة عليه سبحانه ، وإنه ليغضبه أشد الغضب ، ويسخطه أعظم السخط .

( تكاد السموات يتفطرن منه ) أى إنه لعظمه تكاد السموات يتشققن منه لشدة هوله وعظم شأنه ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك . نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين .

( وتنشق الأرض ) أى تخسف بهم .

( وتخر الجبال هداً ) أى تسقط وتهد هذا ، فتنتطبق عليهم ، روى عن ابن عباس أنه قال : إن الشرك فرعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت تزول منه لعظمة الله وكاله .

وقصارى ذلك - إن هول هذه الكلمة الشنعاء لو صور بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام ، وتفرقت أجزاؤها من شدتها .

وفى ذلك تنبيه إلى غضب الله تعالى على قائل هذه الكلمة ، وأنه لولا حمله سبحانه لهلاك .

ثم بين علة ذلك فقال :

( أن دعوا للرحمن ولدا ) أى من أجل أنهم نسبوا لله اتخاذ الولد .

ثم نفى ذلك عن نفسه بقوله :

( وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ) أى وما يليق به اتخاذ الولد ، لأن ذلك يقتضى التجانس بينهما وأن يكون كل منهما حادثا ، ولأن الولد إنما يكون للسروور به ، والاستعانة به حين الحاجة ، ولذا ذكر الجليل ، إلى نحو أولئك من المقاصد التى يتنزه عنها ربنا جل وعلا .

ثم زاد الإنكار توكيدا فقال :

( إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ) أى ما من أحد من الملائكة والإنس والجن إلا وهو مملوك له سبحانه ، يتقاد لحكمه ، ويلتجئ إليه حين الحاجة ، ويخضع له خضوع العبد لسيده .

( لقد أحصاهم ) أى لقد حصرهم وأحاط بهم ، فهم تحت أمره وتديره ، يعلم ما خفى من أحوالهم وما ظهر ، لا يفوته شىء منها .

( وعدتهم عدا ) أى وعد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وأقوالهم ، فكل شىء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة .

( وكلهم آتية يوم القيامة فردا ) أى وكل امرئ منهم يأتية يوم القيامة وحيدا منفردا عن الأهل والأنصار ، منقطعا إليه تعالى ، محتاجا إلى معونته ورحمته .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)  
فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا (٩٧)  
وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) .

## شرح المفردات

الود: المودة والمحبة ، بلسانك : أى بلغتك ، والدّ: واحد هم الدّ ، وهو الشديد الخصومة ، وركزا : أى صوتا خفيا .

## المعنى الجملى

بعد أن فصل سبحانه أحوال الكافرين فى الدنيا والآخرة ، وبالع فى الرد عليهم - ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين ، وبين أنه سبحانه سيغرس محبتهم فى قلوب عباده ، و بعد أن استقصى فى السورة دلائل التوحيد والنبوة والحشر وردّ فيها على فرق المبطلين - بين أنه يسر ذلك بلسان نبيه صلى الله عليه وسلم ليبشر به المتقين وينذر به قوما من المشركين ذوى الجدل والمماراة .

## الإيضاح

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) أى إن الذين آمنوا بالله وصدقوا برسله وبما جاءهم به من عنده وعملوا به فأحلوا حلاله وحرّموا حرامه ، سيجعل لهم الله محبة فى قلوب عباده المؤمنين .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى فى جمع كثير عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله تعالى عبداً يقول لجبريل : إني قد أحببت فلانا فأحبه ، فينادى فى السماء ، ثم تنزل له المحبة فى الأرض ، فذلك قول الله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية » .

وأخرج ابن مردويه والديلمى عن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه : « قل اللهم اجعل لى عندك عهداً ، واجعل لى فى صدور المؤمنين وداً ، فأنزل الله سبحانه الآية » .

وكان هـرم بن حیان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وخلاصة ذلك — سيجعل الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات مودة في القلوب يزرعها لهم من غير تودد منهم ، ولا تعرض للأسباب التي يكتسب بها الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف .  
وقد خصهم الله بهذه الكرامة كما قذف الرعب في قلوب أعدائهم منهم إعظاما لهم وإجلالا لمكانهم .

ثم ذكر الحكمة في إنزال القرآن بلغة العرب فقال :  
( فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ) أى فإنما سهلنا نزول القرآن بلغتك العربية لتقرأه على الناس وتبشر به من اتقى عقاب الله ، فأدى فرائضه واجتنب نواهيه ، بأن له الجنة ، وتنذر به من عصاه من قريش . ، وهم أهل اللدد والجدل بالهوى ممن لا يقبل حقا ، ولا يحيد عن باطل .  
وقصارى ذلك — بلغ هذا المنزل وبشر به وأنذر ، فإنما أنزلناه بلسانك العربى المبين ، ليسهل على الناس فهمه .

ثم ختم السورة بتلك العظة البالغة فقال :  
( وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟ )  
أى وقد أهلكنا كثيرا من الأمم قبل هؤلاء المعاندين ، حين سلكوا فى خلافى مسلك هؤلاء ، وركبوا معاصى ، فهل تحس منهم أحدا فتراه وتعانيه أو تسمع له صوتا ؟ لا — إنهم بادوا وخلصت منهم الديار ، وأقمرت المنازل ، وصاروا إلى دار لا ينفع فيها إلا صالح العمل ، وإن قومك لصائرون إلى مثل ما صاروا إليه ، إن لم يعاجلوا التوبة قبل الهلاك .

وفي هذا وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنصر والغلبة على هؤلاء المشركين ووعيد لأولئك الكافرين الجاحدين ، وحث له على التبشير والإنذار .  
وقصارى ذلك — إنا أهلكنهم ، فلم نبق منهم أحدا تراه ولا تسمع له صوتا خفيا ولا ظاهرا .  
والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين .

### خلاصة لما حوته السورة الكريمة من المقاصد

- ( ١ ) دعاء زكريا ربه أن يهب له ولدا سريا مع ذكر الأسباب التي دعت به إلى ذلك .
- ( ٢ ) استجابة الله دعاءه وبشارته بولد يسمى يحيى لم يسم أحد من قبله بمثل اسمه .
- ( ٣ ) تعجب زكريا من خلق ذلك الولد من أبوين : أم عاقروا وب شيخ هرم .
- ( ٤ ) طلبه العلامة على أن امرأته حامل .
- ( ٥ ) إيتاء يحيى النبوة والحكم صبيا .
- ( ٦ ) ما حدث لمريم من اعتزالها لأهلها ، وتمثل جبريل لها بشرا سويا ، والتجائها إلى الله أن يدفع عنها شر هذا الرجل ، وإخباره لها أنه ملك لا بشر .
- ( ٧ ) حملها بعيسى عليه السلام وانتباذها مكانا قصيا حتى لا يراها الناس وهي على تلك الحال .
- ( ٨ ) نداء عيسى لها حين الولادة ، وأمرها بهز النخلة حتى تساقط عليها رطبا جنيا .
- ( ٩ ) مجيئها بعيسى ومقابلتها لقومها وهي على تلك الحال وقد انهال عليها اللوم والتعنيف ، وأنها فعلت ما لم يسبقها إليه أحد من تلك الأسرة الشريفة التي اشتهرت بالصلاح والتقوى .

(١٠) كلام عيسى وهو فى المهد تبرئة لأمه ووصفه نفسه بصفات الكمال من النبوة والبركة والبر بوالديه وأنه لم يكن جبارا متكبرا على خالقه .

(١١) اختلاف النصارى فى شأنه .

(١٢) قصص إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر ووصفه له بالجهل وعدم التأمل فى المعبودات التى يعبدونها من دون الله ثم تحذيره إياه بسوء مغبة أعماله ، ورد أبيه عليه مهيدا متوعدا .

(١٣) هبة الله له إسحق ويعقوب ، وإيتاؤها الحكم والنبوة .

(١٤) قصص موسى ومناجاته ربه فى الطور ، والامتنان عليه بعمل أخيه هرون وزيره ونبيا .

(١٥) قصص إسماعيل ووصف الله له بصدق الوعد وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

(١٦) قصص إدريس عليه السلام ووصف الله له بأنه صديق نبي رفيع القدر عظيم المنزلة عند ربه .

(١٧) محبة خلف من بعد هؤلاء الأنبياء أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

(١٨) وعد الله لمن تاب وآمن وعمل صالحا مجنات لا لغوف فيها ولا تأثيم .

(١٩) إن جبريل لا ينزل إلى الأنبياء إلا بإذن ربه .

(٢٠) إنكار المشركين للبعث استبعادا له ، ورد الله عليهم بأنه خلقهم من قبل ولم يكونوا شيئا .

(٢١) الإخبار بأن الله يحشر الكافرين يوم القيامة مع قرنائهم من الشياطين ثم يحضرهم حول جهنم جثيا ، ثم بدنه بمن هو أشد جرما والله أعلم بهم .

(٢٢) الإخبار بأن جميع الخلق ترد على النار ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا .

(٢٣) بيان أن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن غفروا على المؤمنين بأنهم خير منهم مجلسا وأكرم منهم مكانا .

(٢٤) تهديدهم بأنه أهلك كثيرا ممن كان مثلهم في العتو والاستكبار ، وأكثر أثامنا ورياسا .

(٢٥) بيان أن الله يمد للظالم ويمهله ، ليجترح من السيئات ما شاء ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

(٢٦) النعى على المشركين باتخاذ الشركاء ، وأنهم يوم القيامة سيكونون لهم أعداء .

(٢٧) نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن طلب تعجيل هلاك المشركين ، إذ أن حياتهم مهما طالت فهي محدودة معدودة .

(٢٨) التفرقة بين حشر المتقين إلى دار الكرامة ، وسوق المجرمين إلى دار الخزي والهوان .

(٢٩) النعى الشديد على من ادعى أن الله ولدا .

(٣٠) بيان أن الله قد أنزل كتابه بلسان عربى مبين ، ليبشر به المتقين ، وينذر به الكافرين ذوى اللدد والخصومة .



## سورة طه

هى مكية إلا آيتى ١٣٠ ، ١٣١ فدينتان ، وعدد آياتها خمس وثلاثون بعد المائة  
نزلت بعد سورة مريم .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه لما ذكر فى سورة مريم قصص عدد من الأنبياء والمرسلين ، بعضها  
بطريق البسط والإطناب كقصص زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وبعضها  
بين البسط والإيجاز كقصص إبراهيم عليه السلام ، وبعضها موجز مجمل كقصة موسى  
عليه السلام ، ثم أشار إلى بقية النبيين بالإجمال - ذكر هنا قصة موسى التى أجملت  
فيما سلف ، واستوعبها غاية الاستيعاب ، ثم فصل قصة آدم عليه السلام ، ولم يذكر  
فى مريم إلا اسمه فحسب .

(٢) إنه روى عن ابن عباس أن هذه السورة نزلت بعد سالتها .

(٣) إن أول هذه السورة متصل بآخر السورة السابقة ومناسب له فى المعنى ،  
إذ ذكر فى آخر تلك أنه إنما يسر القرآن بأسانه العربى المبين ليكون تبشيرا للعنقين  
وإنذارا للمعاندين ، وفى أوائل هذه ما يؤكد هذا المعنى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه (١) مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن  
يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى  
الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا يَدْنُهُمَا وَمَا  
تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ  
إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) .

## شرح المفردات

لتشقى : أى لتتعب وتنصب ، تذكرة : أى تذكيرا وعظة ، يخشى : أى يخاف الله ، العلى : واحدها العليا مؤنثة الأعلى كالكبرى مؤنثة الأكبر ، والعرش : فى اللغة سرير الملك ، ويراد به فى لسان الشرع مركز تدبير العالم ، واستوى : استولى عليه قال شاعرهم :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

والثرى : التراب الندى ؛ والمراد هنا مطلق التراب ، وأخفى : أى من السر وهو ما أخطرته ببالك دون أن تتفوه به بحال ، والأسماء : أى الصفات كما جاء فى قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبَهُمْ » أى صفوهم ، والحسنى : مؤنثة الأحسن .

## المعنى الجملى

روى مقاتل أن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدى والنضر بن الحرث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك ، فقال عليه السلام : بل بعثت رحمة للعالمين ، قالوا بل أنت تشقى ، فأُنزل الله الآية ردا عليهم وتعريفا لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن دين الإسلام هو السبيل إلى نيل كل فوز ، وسبب إدراك كل سعادة ، وما فيه المشركون هو الشقاء بعينه .

## الإيضاح

( طه ) تقدم أن قلنا إن أصح الآراء فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور أنها حروف تنبيه كالأويا ونحوهما مما يذكر فى أوائل الجمل لقصد تنبيه المخاطب إلى ما يلقى بعدها لأهميته وإرادة إصغائه إليه نحو ما جاء فى قوله تعالى : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » وينطق بأسمائها حين القراءة فيقال (طاها)

( ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ) أى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب وتغلو  
 فى مكابدة الشدائد حين تحاور أولئك القوم الطغاة ، وتقاول أولئك العتاة ، وتفرط  
 فى الأسى على كفرهم ، وتتحسر على عدم إيمانهم ، بل أنزلناه عليك لتبلغ وتذكر  
 وقد فعلت ، فلا عليك إن لم يؤمنوا بعد هذا .

ونحو الآية قوله : ( فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا  
 الْحَدِيثِ أَسَفًا ) .

وقصارى ذلك — إنا أنزلناه عليك لتذكر به ، فن آمن وأصلح فلنفسه ، ومن  
 كفر فلا يحزنك كفره ، إن عليك إلا البلاغ ، واست عليهم بمسيطر .  
 وفى هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم عما كان يعتريه من التعب والنصب حين  
 كان يدعو أولئك القوم ذوى اللدد والخصومة ، ولا عجب فالكلام صنعتهم وبه  
 يتفخرون ، وعليه يعتمدون ، إذ يقرعون الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ، وهو  
 لديهم أمضى من السنان .

( إلا تذكرة لمن يخشى ) أى ما أنزلناه عليك لشقائك ، ولكن أنزلناه تذكرة  
 لمن يخشى الله تعالى ويتأثر بالإنذار لركة قلبه ، وحسن استعداده ، وقد كان عليه  
 السلام يعظهم به بتلاوته وتفسير ما جاء به من مقاصد وأغراض ومصالح لهم  
 فى دنياهم وآخرتهم .

وخص الخاشعين بالذكر مع أن القرآن تذكرة للناس كلهم ، من قبل أن غيرهم  
 كأنه لا وجود له لعدم انتفاعه به .

وخلاصة ذلك — حسبك ما حملته من متاعب التبليغ والتبشير والإنذار ،  
 ولا تنهك بدنك بحملهم على قبول الدعوة والاستجابة لأمرك ، فإن ذلك من شأننا  
 لا من شأنك ، وبيدنا لا بيدك .

( تنزيلا من خلق الأرض والسموات العلى ) أى نزل عليك تنزيلا من ربك

الذى خلق الأرض والسموات العلى ، والمراد بهما ما فى جهة السفلى والعلو ، ويستتبع ذلك كل ما يتعلق بهما .

(الرحمن على العرش استوى) أى هو الرحمن الذى على عرشه ارتفع وعلا ، وقد تقدم إيضاح هذا فى سورة الأعراف ببسط وإطناب .

(له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) أى له ما فى السموات والأرض وما بينهما ملكا وتدييرا وتصرفا ، وله ما وراه التراب وأخفاه من المعادن والفلزات وغيرها .

(وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) أى وإن تجهر بدعاء الله وذكركه ، فاعلم أنه تعالى غنى عن جهرك ، لأنه يعلم ما أسررتك إلى غيرك ولم ترفع به صوتك ، وأخفى منه مما تخطره ببالك دون أن تنفوه به .

والدعاء والذكر باللسان إنما شرعا ليتصور الداعى والذاكر المعنى فى نفسه ، لا لسمع صوته ، ولا فضل للتطق والجهر به إلا فى منع الشواغل الشاغلة عن حضور المعانى فى القلوب كما قال تعالى : « وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » ونحو الآية قوله : « وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ » .

(الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) أى إن ما ذكر من صفات الكمال التى تقدمت ليس بأهل لها إلا ذلك المعبود الحق الذى لا رب غيره ولا إله سواه ، وله الصفات الحسنى الدالة على التقديس والتجديد ، والأفعال التى هى غاية فى الحكمة والسداد .

### قصص موسى عليه السلام

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا  
إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِيَّيَّيْنَا نَارُكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) .

### شرح المفردات

الحديث: كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو في منامه، والمسك: الإقامة، آست: أى أبصرت، آتيكم: أحييكم، بقبس: أى بشعلة مقتبسة على رأس عود ونحوه، هدى: أى هاديا يدلنى على الطريق، طوى: (بالضم) منونا: اسم لذلك الوادى، اخترتك: أى اصطفتيك، لذكرى: أى لتسكون ذاكرالى، أكاد أخفيها: أى أبالغ فى إخفائها ولا أظهرها بأن أقول إنها آتية، هواه: أى ما تهواه نفسه، فتردى: أى قتهلك .

### المعنى الجملى

بعد أن عظم سبحانه كتابه والرسول الذى أنزل عليه بما كلفه به من التبليغ بالإنذار والنبشير - أتبع ذلك بما يقوى قلبه من قصص الأنبياء وما فعلته أهمهم معهم وكيف كانت العاقبة لهم والنصر حليفهم ، ففى هذا سلوى له وتأس بهم فيما قاموا به من الذود عن الحق مهما أصابهم من العنت والأذى من جراء الدعوة إليه ، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله : « وَكَأَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُمْ بِهِ فُؤَادَكَ » .

وبدأ بقصص موسى لأن محنته كانت أشد فقد تحمل من المكاره ما تنوء به  
راسيات الجبال ، وقابل ذلك بعزم لا يفترو بقوة ثقل الحديد .

### الإيضاح

( وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا ) أى وهل بلغك كيف كان ابتداء  
الوحى إلى موسى وتكليم الله إياه .

ومن سنن العربية أنه إذا أريد تثبيت الخبر وتقرير الجواب في نفس المخاطب  
أن يلقى إليه بطريق الاستفهام ، فيقول المرء لصاحبه : هل بلغك كذا وكذا ، فيتطلع  
السامع إلى معرفة الخبر ويصغى إليه أتم الإصغاء .

روى أن موسى عليه السلام استأذن شعبيا في الرجوع إلى والدته فأذن له بعد  
أن قضى الأجل الذى كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم ، فخرج وسار قاصدا مصر  
بعد أن طالت غيبته عنها فقد زادت على عشر سنين ومعه زوجته ، فولد له ابن  
في الطريق في ليلة شامية ذات ثلج وبرد وسحاب وضباب وظلام ، ونزل منزلا بين  
شعاب وجبال ، وجعل يتدح برند كان معه ليورى نارا ، فلم تور المقدحة شيئا ،  
وبينا هو يزاول ذلك ويعالجه إذ رأى نارا من بُعد عن يسار الطريق .

( فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار  
هدى ) أى فقال المرأة وولدها وخادمها مبشرا لهم : أقيموا مكانكم إني أبصرت نارا  
وسأذهب إليها لعلني أجيئكم منها بشعلة مقتبسة على رأس عود أو نحوه ، أو أجد هاديا  
يدانى على الطريق ، وجاء في سورة القصص : « لَعَلَّ آتِيكُمْ مِنْهَا نَجْرٌ أَوْ جَذْوَةٌ  
مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » .

وقصارى ذلك — إنه قال لأهله أقيموا مكانكم — وإني قد رأيت نارا ، فإما أن  
آتيكم منها بقبس تشتعلون منه نارا تصطلون بها ، وإما أن أجد دليلا يرشدنى إلى  
الطريق السلوك وكان قد ضل عنه .

( فلما أتاه نودى ياموسى إني أنا ربك ) أى فلما خرج موسى نحوها وجد نارا  
بيضاء تنقد كأضواء ما يكون فى شجرة خضراء ، فلا ضوء النار يغير خضرتها ، ولا  
خضرة الشجرة تغير ضوء النار . وهناك نودى ياموسى ، قال من المتكلم ؟ قال إني  
أنا ربك .

ثم أمره أن يخلع نعليه احتراماً للبقعة المقدسة فقال :  
( فاخلع نعليك ) إذ أن الحفوة أقرب إلى التواضع وحسن الأدب ، ومن ثم  
طاف السلف الصالح بالكعبة حافين ؛ ثم بين سبب الأمر بذلك بقوله :  
( إنك بالواد المقدس طوى ) أى لأنك بالوادي المظهر المسمى بطوى فاخلعهما  
ليحصل للقدمين بركته .

( وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ) أى وأنا اصطفيتك من قومك للنبوّة والرسالة ،  
فعليك أن تسمع لما أوحى إليك ، ونحو الآية قوله : « إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ  
بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي » .

وقصارى ذلك — لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له واجعل كل خاطرك مصروفاً  
إليه ، وقد قالوا : إن من أدب الاستماع سكون الجوارح والأعضاء وغض البصر  
والإصغاء بالسمع وحضور القلب والعزم على العمل .

وقد بين سبحانه أهم ما يوحى إليه بقوله :  
( إني أنا الله لا إله إلا أنا ) أى إن أول الواجب على المكلف أن يعلم أنه  
لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

( فاعبدنى ) أى وإذ كنت أنا الإله حقاً ولا معبود سواى ، فخصنى بالعبادة  
والتذلل والانقياد فى جميع ما كلفتك به .

( وأقم الصلاة لذكركى ) أى أد الصلاة على الوجه الذى أمرتك به بمقومة  
الأركان مستوفاة الشرائط ، لئلا ذكرنى فيها وتدعونى دعاء خالصاً لا يشوبه إشراك  
ولا توجه إلى سواى .

وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات ، لما لها من الفضل على سواها ،  
إذ فيها ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذلك ، ومن ثم تنهى عن الفحشاء والمنكر .  
أخرج الترمذى وابن ماجه فى جملة آخرين من حديث أبى هريرة قال : قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال :  
أقم الصلاة لذكرى » .

ثم بين السبب فى وجوب العبادة وإقامة الصلاة فقال :

( إن الساعة آتية أكاد أخفيها ) أى إن الساعة آتية لا محالة ، وإنى أكاد  
أخفيها من نفسى ، فكيف يعلمها غيرى من الخلق ، وقد جاء هذا على سنن العرب  
يقول أحدهم إذا بالغ فى كتمان السر : كتمت سرى من نفسى ، يريد أنه أخفاه  
غاية الإخفاء .

وفائدة إخفائها التحويل والتخويف ، فإنيهم إن لم يعلموا متى تقوم الساعة  
يكونوا منها على حذر ، ولمثل تلك الفائدة أخفى الله وقت الموت ، لأن المرء إذا علم  
وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصى إلى أن يقرب ذلك الحين فيتوب ويصلح  
عمله ، وقد وعد الله بقبول توبته ، وهذا يكون كالإغراء على المعصية ، لكنه إن لم  
يعلم حين منيته كان منها على حذر ، ولا يزال على قدم الخوف والوجل ، فيترك  
المعاصى ويتوب منها فى كل حين خوف معالجة الموت .

( لتجزى كل نفس بما تسعى ) أى إن الساعة آتية لا محالة لتجزى كل عامل  
بعمله « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »  
« إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » .

ثم خاطب سبحانه موسى محذرا له فقال :

( فلا يصذنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ) أى فلا يردنك ياموسى  
عن التأهب للساعة من لا يقر بقيامها ولا يصدق بالبعث ، ولا يرجو ثوابا ولا يخاف  
عقابا ، بل يركب رأسه ويخالف أمر ربه ونهييه ، فإنك إن فعلت ذلك وقعت



في هاوية الخذلان والعصيان ، وهذا الخطاب من وادى قولهم ( إياك أعنى واسمعى يا جاره ) فلما راد بمثل هذا الخطاب جميع المكلفين كما تقدم غير مرة .  
 وخلاصة ذلك — لا تتبعوا سبل من كذب بالساعة وأقبل على لذاته في دنياه  
 وغضى أمر ربه واتبع هواه ، فإن من سلك سبيلهم خاب وخسر كما قال : « وَمَا يُغْنِي  
 عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » .

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّوْا عَلَيْهَا  
 وَأَهْشُوا بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى (١٩)  
 فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا  
 الْأُولَى (٢١) .

### شرح المفردات

أتوكأ عليها : أعتد عليها في المشى والوقوف على رأس القطيع ونحو ذلك ،  
 وأهش بها : أى أخطب بها ورق الشجر ، مآرب : أى منافع واحدها مأربة ( مثلثة  
 الراء ) والحية : تطلق على الصغير والكبير والذكر والأنثى من هذا النوع ، والثعبان :  
 العظيم من الحيات ، والجأن : الصغير منها ، سيرتها الأولى : أى حالها الأولى وهى كونها  
 عصا ، يقال لكل من كان على أمر فتركه وتحول عنه ثم راجعه : عاد فلان  
 سيرته الأولى .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مناجاته لموسى حين رأى النار التى فى الشجرة ، واختياره  
 نبيا وإيماءه إليه أن لا إله إلا هو ، وأمره بإقامة الصلاة لما فيها من ذكره ، وتخصيصه

بالعبادة دون سواه ، ثم إخباره بأن الساعة آتية لا محالة ليجزى المحسن بإحسانه ،  
والمسيء بما دس به نفسه جزاء وفاقا .  
قضى على ذلك بذكر البرهانات التي آتاها موسى دلالة على نبوته وتصديقه على  
رسالته ، فبدأ بذكر العصا التي انقلبت حية تسعى حين ألقاها من يده ، وكان  
قد سأله عنها استجماعا لقلبه ، وتهديئة لروعه في هذا المقام الرهيب ، وإعلاما بما سيكون  
لها بعد من عظيم الشأن وجليل المنافع والمزايا التي لم تكن تدور بخلد عليه السلام .

### الإيضاح

(وما تلك بيمينك يا موسى) سأله سبحانه عما في يده وهو العليم به ، ليبين له أنه  
سيجعل من تلك الخشبة التي ليس لها خطر كبير ولا منفعة عظيمة - جليل المزايا  
والفوائد التي لم تكن تخطر له على بال كإقلا بيا حية تسعى ، وضرب البحر بها حتى  
ينفلق ، وضرب الحجر حتى يتفجر منه الماء ، ولينبئه بهذا الطريق إلى كمال قدرته ،  
وبالغ عظمته ، إذ أظهر من أحقر الأشياء هذه المزايا الجليلة - على سنن الناس  
في تخاطبهم إذا أراد أحدهم أن يظهر من الشيء الخفي شيئا شريفا ، أن يأخذه  
ويعرضه على النظارة ويقول لهم : ما هذا ؟ فيقولون هو كذا ، فيفيض في شرح ماله  
من فائق المزايا وجليل المنافع التي لم تكن تدور بخلد هم ، ولم تخطر ببالهم - فأجابه  
موسى معددا ما لها من فوائد ومزايا على حسب ما وصلت إليه معرفة البشر .

(قال هي عصاى) وبهذا تم الجواب ، ولكن موسى ذكر ما لها من فوائد ،  
إذ أحب مكالمه ربه فجعل ذلك كالوسيلة لهذا الغرض ، فبين لها فائدتين على سبيل  
التفصيل ، وواحدة على سبيل الإجمال فقال :

(١) (أتوكأ عليها) أى أعتمد عليها إذا مشيت أو تعبت أو وقفت على رأس

القطيع من الغنم .

(٢) (وأهش بها على غنمى) أى أحبط ورق الشجر بها ليستقظ على

غنمى فتأكله .

(٣) (ولى فيها مآرب أخرى) أى ولى فيها مصالح ومنافع أخرى غير ذلك  
 كحمل الزاد والسقى وطرده السباع عن الغنم ، وإذا شئت ألفتها على عاتق ، فعلفت بها  
 قوسى وكناتى ومخلاتى وثوبى ، وإذا وردت ماء قصر عنه رشائى وصلته بها .  
 وقد أجل عليه السلام فى المآرب رجاء أن يسأله ربه عنها ، فيسمع كلامه مرة  
 أخرى ويطول الحديث بهذا .

وبعد أن ذكر هذه الجوابات أمره الله بإلقائها لتبين لها فوائد لم يعرفها موسى .  
 (قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسمى) أى قال له ربه : ألقها يا موسى  
 لترى من شأنها ما ترى ، فألقاها فإذا هى ثعبان عظيم ينتقل من مكان إلى آخر مسرعا  
 وجاء تشبيهها بالجان وهو الصغير من الحيات فى قوله (فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ  
 وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ) لما ظهر لها من سرعة الحركة والقوة ، لا لصغرها .

ثم أمره ربه بأخذها وهى على تلك الحال دون خوف ولا ذعر .  
 (قال خذها ولا تخف) أى قال له ربه : خذها بيديك ولا تخف منها .  
 وهذا الخوف مما تقتضيه الطبيعة البشرية حين مشاهدة الأمر الجلل الذى  
 لا يعرف له نظير ولا يدرك له سبب ، ولا ينقص ذلك من جلالة قدره عليه السلام .  
 ثم علل النهى عن الخوف بقوله :

(سنعيدها سيرتها الأولى) أى منرجعها إلى الحال التى كانت عليها من قبل  
 وهى العسوية ، فأقدم على ذلك برابطة جأش وثبات وعزم دون تردد ولا ذعر .

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْنَظَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً  
 أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ  
 طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ  
 عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩)

هَارُونَ أَخِي (٣٠) أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢)  
 كَيْ نَسَبَّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا  
 بَصِيرًا (٣٥)

### شرح المفردات

الضم : الجمع ، وأصل الجناح للطائر ثم أطلق على اليد والعضد والجنب وهو المراد هنا ، والسوء : القبيح في كل شيء ، ويراد به هنا البرص والطباع تنفر منه ، وآية أخرى : أى معجزة ثانية غير العصا ، طغى : أى تجاوز الحد في عتوه وتجبره ، أشرح لى صدرى : أى وسعته لتحمل أعباء الرسالة ، ويسر لى أمرى : أى سهل لى ما أمرتني به من تبليغ الرسالة ، واحلل عقدة من لساني : أى أزل ذلك التعمد والحبسة التى فى لساني لئلا يستخف بى الناس وينفروا منى ولا يستمعوا لكلامى ، يفقهوا قولى : أى يفهموه ، وزيرا : أى معينا ، والأزر : القوة ، يقال أزره أى قواه وأعانه ، وأشركه فى أمرى : أى اجعله شريكا لى فى النبوة والرسالة ، إنك كنت بنا بصيرا : أى علما بأحوالنا لا تريد بالطاعة إلا رضاك .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر المعجزة الأولى الدالة على نبوة موسى عليه السلام ، وعلى صدق رسالته وهى العصا وما صدر منها من الأفاعيل حين ألقاها من يده ، ثم عودتها سيرتها الأولى حين أخذها من الأرض - قفى على ذلك بذكر المعجزة الثانية التى آتاها إياه وهى معجزة اليد ، فإنه كان إذا وضع يده اليمنى إلى جنبه الأيسر تحت العضد ثم أخرجها أضاءت كشعاع الشمس تعشى البصر ، ثم بذكر أمره له بالذهاب إلى فرعون لتبليغ رسالة ربه ، ثم دعائه ربه أن يشرح له صدره ويسهل له أمره ، وأن يجعل له

أخاه هرون نبيا كي يشد أزره ويقوى على تبليغ الرسالة ، ويتعاوننا على ذكر الله وعبادته .

### الإيضاح

( واضم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء ) أى أدخل يدك اليمنى من طوق مدرعتك ( قميصك ) واجعلها تحت الإبط اليسرى تخرج بيضاء لامعة من غير برص ولا عيب ، روى أن موسى كان إذا أدخل يده فى جيبه ثم أخرجها تتلألاً كأنها فلقة قر ، قال الحسن البصرى : أخرجها والله كأنها مصباح ، فلم أنه قد لقي ربه .

( آية أخرى ) أى وهذه علامة أخرى غير الآية التى أرينا كما من قبل من تحويل العصا حية تسعى - تدل على صدقك فيما بعثناك به من الرسالة لمن بعثناك إليهم .

( لنريك من آياتنا الكبرى ) أى افعل ذلك كي نريك بعض أدلتنا على عظيم سلطاننا وكامل قدرتنا وبديع تصرفنا فى ملكوت السموات والأرض .

وبعد أن أظهر له هذه الآيات أمره بالذهاب إلى فرعون المتكبر الجبار فقال : ( اذهب إلى فرعون إنه طغى ) أى اذهب إليه بما رأيته من آياتنا الكبرى ، وادعه إلى عبادتى ، وحذره نعمتى ، فإنه قد تجاوز قدره وتمرد على ربه حتى تجاسر على دعوى الربوبية ، وقال : أنا ربكم الأعلى .

قال وهب بن منبه : قال الله لموسى : اسمع كلامى واحفظ وصيتى وانطلق برسالتى فإنك بعينى وسمعى ، وإن معك يدى ونصرى ، وإنى ألبستك جبة من سلطانى تستكمل بها القوة فى أمرك ، أبعثك إلى خلق ضعيف من خلقى ، بطر نعمتى ، وأمن مكرى ، وغرته الدنيا حتى جحد حتى ، وأنكر ربوبيتى ، أقسم بعزتى ، لولا الحجة التى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ، ولكن هان على وسقط من

عيني ، فبلغه رسالتي ، وادعه إلى عبادتي ، وحذره نعمتي ، وقل له قولاً لنا ، لا يفتقر بلباس الدنيا ، فإن ناصيته بيدي ، لا يطرّف ولا يتنفس إلا بعلمي ، قال : فسكت موسى سبعة أيام لا يتكلم حتى جاءه ملك فقال : أجب ربك فيما أمرك ، فحينئذ .

( قال رب أشرح لي صدري ) أي رب وسع لي صدري ، لأعني عنك ما تودعه فيه من وحيك ، وأجترئ به على خطاب قرعون ، فإنك قد كلفتنى أمراً عظيماً لا يحتمله إلا ذو جأش رابط . وصدر فسيح ، فقد بعثتنى إلى أعظم ملك على وجه الأرض وأجبرهم وأشدّهم كفراً وأكثرهم جنداً وأعمرهم ملكاً وأطاعهم وأبلغهم تمرداً ، وقد بلغ من تمرده أنه لا يعلم إلهاً غيره .

وخلاصة ذلك — اجعلني رابط الجأش حتى لا أخاف سواك ، ولا أهرب غيرك حين تبليغ رسالتك ، وكن عونى ونصيرى ، وإلا فلا طاقة لى بذلك .

( ويسر لى أمرى ) أى سهل على القيام بما تكلفى به من تبليغ الرسالة ، وتحملى من الطاعة ، وأفض على من القوة ما يفي بالعمل على نشر الدين ، وإصلاح حال الخلق . ( واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولى ) أى وأطلق لساني بالنطق ليفهموا قولى حين تبليغ الرسالة ، وكان فى لسانه حُبسة تمنعه من كثير من الكلام ، وقد روى أن الحسين رضى الله عنه كان فى لسانه رُتة ( حبسة ) فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن هذه ورثها من عمه موسى .

ولما كان التعاون على نشر الدين مع خلوص الود قرينة عظيمة لله — طلب موسى المعاونة على ذلك فقال :

( واجعل لى وزيراً من أهلى هرون أخى ) أى واجعل لى عوناً من أهل بيتى هرون أخى ، ليحمل معى أعباء الرسالة ، ويكون ظهيراً لى عند الشدائد ، وحلول المسكاره ، ومثل هذا قال عيسى عليه السلام « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن لى فى السماء وزيرين وفى الأرض وزيرين ، فاللذان فى السماء جبريل وميكائيل ، واللذان فى الأرض أبو بكر

وعمر . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أراد الله بملك خيرا قبيض له وزيراً صالحاً ، إن نسي ذكره ، وإن نوى خيراً أعانه ، وإن أراد شراً كفه » . وقال أنوشروان : لا يستثنى أجود السيوف عن الصقل ، ولا أكرم الدواب عن السوط ، ولا أعلم الملوك عن الوزير .

وقد اختص هرون بأمور منها :

(١) القصاصه ؛ لقول موسى هو أفصح منى لساناً .

(٢) الرقيق لقول هرون : يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأى .

(٣) الوسامة والجمال وبياض اللون ، وكان موسى آدم اللون أفنى جمدا .

روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها خرجت تعتمر فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلاً يقول : أى أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه ؟ قالوا لا ندرى . قال : أنا والله أدرى ، قالت فقلت فى نفسى ، فى حلفه لا يستثنى ، إنه ليعلم أى أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه ؟ قال موسى حين سأل لأخيه النبوة ، فقلت صدق والله .

ثم طلب موسى من ربه أن يشده به أزره فقال :

( اشدده به أزرى وأشركه فى أمرى ) أى أحكم به قوتى ، واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى تتعاون على أدائها على الوجه الذى يؤدى إلى أحسن الغايات ، ويوصل إلى الغرض على أجمل السبل .

ثم حكى عنه سبحانه ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال :

( كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ) أى لكى ننزهك عما لا يليق بك من الصفات والأفعال التى من بينها ما يدعيه فرعون الطاغية ، وفئته الباغية من الألوهية له ونذكرك وحدك ابتغاء مرضاتك ، دون أن نشرك معك غيرك أثناء أداء الرسالة ، ودعوة المردة الطغاة إلى الحق .

ولا شك أن التعاون فى الدعوة أنجع فى الوصول إلى المقصد من الانفراد ، فكل

من النبيين يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحق ما لا يصدر عنه مثله في حال الانفراد .

(إنك كنت بنا بصيرا) أى عليا بأحوالنا ، وأن ما طلبناه مما يفيدنا في تحقيق ما كلفتنا به من إقامة مراسم الرسالة على أتم الوجوه وأكملها ، فإن هرون نعم العون على أداء ما أمرت به من نشر معالم الدين وكبح جماح المضلين ، وإرشادهم إلى حق اليقين .

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) .

### شرح المفردات

السؤل : بمعنى المسؤل : أى المطلوب كالخبز بمعنى الخبز ، مننا : أى أنعمنا ، مرة أخرى : أى في وقت آخر غير هذا الوقت ، أوحينا : أى ألهمنا كما جاء في قوله « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » وقوله « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي » اقذفيه : أى ألقه واطرحه ، واليم : البحر . والمراد به هنا نهر النيل ، والساحل : الشاطئ ، ولتصنع على عيني : أى ولتربي وتغذى برأى مني وأنا مراعيك ومراقبك كما يرعى الرجل الشيء بعينه دلالة على عنايته به ، يكفله :



أى يضمه إلى نفسه ، تقرر عينها : أى تسر ، والغم : الكدر الناشئ من خوف شيء أو فوات مقصود ، والقنوت : الابتلاء والاختبار بالوقوع فى المحن ثم تخليصه منها ، لبثت : أى أقمت ، مدين : بلد بالشام .

### المعنى الجملى

اعلم أن موسى عليه السلام لما سأل ربه أمورا ثمانية وكان قيامه بما كلف به لا يتم على الطريق المرضى إلا إذا أجابه إليها - لاجرم أجابه الله تعالى إلى ماطلب ، ليسكون أقدر على الإبلاغ على الوجه الذى كلف به ، ثم ذكره بنعمه السالفة حين كانت أمه ترضعه وتحذر عليه من فرعون ومائه أن يقتلوه ، فألهما أن تصنع تابوتا وتضعه فيه وتلقيه فى النيل ففعلت ، فألقاه النيل فى الساحل ، فالتقطه آل فرعون وربوه فى منزلهم ، وألقى الله محبة فى قلوبهم له وصار كأنه ابنهم ، ثم ذكره بنجاته من القصاص حين قتل المصرى وهرب إلى مدين .

### الإيضاح

( قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ) أى قال الله تعالى لموسى : قد أعطيتك جميع ما سألتنى عنه من شرح صدرك ، وتيسير أمرك ، وحل عقدة لسانك ، وجعل أخيك هرون وزيرا لك وشد أزرك به وإشراكه فى الرسالة معك .

( ولقد مننا عليك مرة أخرى ) أى ولقد تفضلنا عليك من قبل بنعم كثيرة ، ومن راعى مصلحتك قبل سؤلك ، وأعطاك ما ترجو ، أفيمنع عنك ما تريد بعد سؤالك؟ ومن رقى بك إلى مراتب الكمال ، وصعد بك إلى أوج المعالى ، وسما بك إلى درجات الرفعة ، ووكل إليك ذلك المنصب الخطير ، أفيليق به وهو الجواد الكريم أن يحجز عنك ما تؤمل بما أنت فى شديد الحاجة إليه لتبليغ رسالته ؟ .

وفى التعبير عن تلك النعم بالمنن إيماء إلى أنها إنما وصلت إليه بمحض التفضل والإحسان .

وقد عد سبحانه من تلك النعم ثمانيا فقال :

( ١ ) ( إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى . أن اقذفيه في التابوت فاقدفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدوله ) أى واذا ذكر حين ألهمنا أمك وأوقفنا في قلبها عزيمة صادقة أن أمثل الطرق لخلاصك من فرعون وجبروته ، أن تضعك في تابوت - صندوق - ثم تطرح هذا التابوت في نهر النيل ، ففعلت فألقاك النهر في الساحل ، فأخذك فرعون عدو الله ورباك في بيته ، وسيصير عدوا لك بعد ذلك كما هو عدو لي . روى أنها جعلت في التابوت قطناً مخلوجاً ووضعته فيه ، وطلت ظاهره بالخص والقار ثم ألقته في اليم ، وكان يشرع منه ( يتفرع ) نهر كبير إلى بستان فرعون ، فبينما هو جالس إلى رأس بركة مع زوجه إذا بتابوت يجرى به الماء ، فأمر فرعون غلمانه وجواريه بإخراجه ففعلوا وفتحوا رأسه فإذا صبي من أصبح الناس وجها فأحبه فرعون حبا شديدا لم يمثالك أن يصبر عنه .

( ٢ ) ( وألقيت عليك محبة منى ) أى ألقى عليك محبة خالصة منى قد ركرتها في القلوب وزرعتها فيها ، ومن ثم أحبك فرعون وزوجه حتى قالت « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » .

( ٣ ) ( ولصنع على عيني ) أى ولتربى برعايتي ، فأنا مراقبك وحافظك ، كما يراعى الرجل الشيء بعينه إذا أراد شدة العناية به ، يقول الرجل للصانع : اصنع هذا على عيني انظر إليه حتى يأتى على وفق ما أحب وأبغى .

( ٤ ) ( إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن ) أى وألقيت عليك محبة منى حين تمشى أختك تتبعك متعرفة حتى وجدت لك وصادقهم يطلبون لك مرضعا تقبل ثديها ، حتى اضطروا إلى تتبع النساء ، فلما رأت ذلك منهم جاءت إليهم متبكرة وقالت هل أدلكم على من يضمه إليه ويحفظه ويربيه ؟ فجاءت بالأم فقبل ثديها ورجع إليها بما لطف الله له من التدبير ، وقرت عينها بسلامته ، وزال عنها الحزن والغم الذى كان قد ألم بها .

(٥) ( وقتلت نفسا فنجيناك من الغم ) أى وقتلت بعد كبرك القبطى الذى وكزته حين استغاث بك الإسرائيلى ، فنجيناك من الغم الذى نزل بك من وجهين :  
( ١ ) عقاب الدنيا وهو اقتصاص فرعون كما جاء فى الآية « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » .

( ب ) عقابنا إذ قتلته بغير أمر منا فغفرنا لك ذنبك حين قلت : « رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي » ووقفناك للهجرة إلى مدين .

( ٦ ) ( وفتناك فتونا ) أى أوقعناك فى محنة بعد محنة وتفضلنا عليك بالخلاص منها ، فمن ذلك :

( ١ ) إن أمك حملت بك فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الأبناء ، فنجاك الله من الذبح .

( ب ) إن أمك ألقيتك فى البحر بعد وضعك فى التابوت فالتقطك آل فرعون وعنوا بتربيتك ورعايتك .

( ح ) إنك امتنعت عن الرضاع إلا من ثدى أمك وكان ذلك وسيلة إلى إرجاعك إليها .

( د ) إنك أخذت بلحية فرعون فغضب من ذلك وأراد قتلك لولا أن قالت له زوجته : إنه صغير لا يفرق بين الجرة والتمره وأتى لك بهما فأخذت الجرة .

( هـ ) قتلك القبطى وخروجك إلى مدين هاربا .

( ٧ ) ( فلبثت سنين فى أهل مدين ) قاسيت أثنائها من الحزن ما قاسيت ، وتمحات بسبب الفقر والغربة آلاما كثيرة حتى احتجت إلى أن تؤاجر نفسك لشعيب وترعى غنمه .

( ثم جئت على قدر ياموسى ) أى ثم جئت على وفق الوقت الذى سبق فى قضائى وقدرى أن أكلّمك فيه وأن أجعلك رسولا دون تقدم ولا تأخر عنه ، ولولا توفيق الله لما تهيا لك شىء من ذلك .

(٨) (واصطنعتك لنفسى) أى اخترتك لإقامة حجتي ، وجعلتك واسطة بيني وبين خلقى فى تبليغ الدين وهدايتهم إلى التوحيد والشرع القويم الذى به صلاح البشر فى دينهم ودنياهم .  
وخلاصة ذلك — إني جعلتك من خواصى واصطفيتك برسالاتى وبكلامى ، فصرت بما آتيتك من كرامة النبوة وجيليل النعمة بالمكلمة أشبه بمن يراه الملك أهلا لسكرامته فيقر به إليه ويحمله من خواصه وندمائه ويصطنعه بالإحسان إليه فى الحين بعد الحين والفيئة بعد الفيئة .

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَكَ بِهِ سُلْطَانٌ وَلَا يَخَافُ أَوْ يُخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)

### شرح المفردات

الآيات : هى المعجزات ، والمراد بها العصا واليد البيضاء ، فإن فرعون حين قال له : فأت بآية ألقى العصا ونزع اليد وقال فذاتك برهانان من ربك ، ولا تنيا : أى لا تفترا ولا تقصرا ، فى ذكرى : أى فى تبليغ رسالتى ، فالذكر يطلق على كل العبادات ، وتبليغ الرسالة من أعظمها ، طغى : أى تجاوز الحد ، قولنا : أى لا عنف فيه ولا غلظة ، يتذكر : أى يتأمل فيدعن للحق ويؤمن ، يخشى : أى يخاف من بطش الله وعذابه ، يفرط : أى يعجل بالعقوبة ، من قولهم فرس فارط إذا كان سباقا للخيل ،

يطغى : أى يزداد طغيانا ، أسمع وأرى : أى أسمع وأرى ما يجرى بينكما من قول أو فعل ، فأتياه : أى فقابلاه وجها لوجه ، فأرسل معنا بنى إسرائيل : أى أطلقهم من الأسر ، ولا تعذبهم : أى ولا تبقيهم على ما هم عليه من العذاب والتسخير فى شاق الأعمال ، والسلام على من اتبع الهدى : أى والسلامة من العذاب فى الدارين لمن صدق بآيات الله الهادية إلى الحق ، تولى : أى أعرض .

### المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه المن الثمانية بإزاء ما طلبه موسى من المطالب الثمان - شرع يذكر الأوامر والنواهي التى طلب إليه أن يقوم بتنفيذها ويؤدى الرسالة على النهج الذى أمره به .

### الإيضاح

( اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ) أى اذهب أنت وأخوك إلى فرعون وقومه ، وإنى ممدكما بحججى وبرهانأتى الدالة على صدق نبوتكما ، وأظهر على أيديكما من الآيات ما تراح به العلى والمعاذير ، ولا تفترأ فى دعوتهم وتبايع الرسالة إليهم ، فبيدنا لهم أن الله أرسلكما إليهم مبشرين بشوابه ومنذرين بعقابه .

( اذهبوا إلى فرعون إنه طغى ) أى اذهبوا معا إلى فرعون وناضلاه الحجة بالحجة وقارعه بالبرهان بالبرهان ، لأنه طغى وتجبر وتمرد حتى ادعى الربوبية فقال أنا ربكم الأعلى .

وتخصيص فرعون بالدعوة آخرأ بعد أن كانت الدعوة عامة أولا ، من قبل أنه إذا صادفت الدعوة من فرعون أذنا ضاغية ، واستجاب لدعوتها وآمن بهما تبعه المصريون قاطبة كما قيل : الناس على دين ملوكهم .

ثم بين لهما سبيل الدعوة فقال :

(فقلوا له قولاً لينا) أى فكلماه بكلام رقيق لين ليكون أوقع فى نفسه وأنجع فى استجابته للدعوة ، فبرقيق القول تلين قلوب العصاة ، وتنكسر سورة الطاعة ، ومن ثم جاء الأمر به لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

ومن هذا ما حكى الله بعضه عن موسى فى قوله لفرعون : « هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » وقوله له : « وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى » . ثم علل الأمر بالإنارة القول بقوله :

(لعله يتذكر أو يخشى) تقدم أن قلنا إن لعل فى مثل هذا لتوقع حصول ما بعدها : أى أديا الرسالة ، وقوما بتنفيذ ما دعوتكما إليه ، واسعيما إلى إنجاز سعى من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ، ولا يخيب سعيه ، فهو يجتهد قدر استطاعته ، ويحتشد بأقصى وسعه آملا أن تكال أعماله بالنجاح والفوز والفلاح .

وقصارى ذلك — اصدعا بالأمر وأتما طامعان أن أعمالكما ستثمر ، وأنكما ستهديانا إلى سواء السبيل ؛ وقد جرت العادة أن من رجا شيئا طلبه ، ومن يأس انقطع عمله ، والمقصد من ذلك إلزامه بالحجة ، وقطع المذرة ، وإن لم يفد هدايته .

(قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) أى قال موسى وهرون : ربنا إننا نخاف فرعون إن نحن دعواناه إلى ما أمرتنا أن ندعوه إليه ، أن يعجل علينا بالعقوبة ، ولا يصبر إلى إتمام الدعوة وإظهار المعجزة ، أو يزداد طغيانا فيقول فى شأنك ما لا ينبغي ، لعظيم جرأته ، وقساوة قلبه ، وفجوره وشديد عصيانه .

(قال لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى) أى قال الله لهما : لاتخافا فرعون إننى معكما بالنصرة والتأييد والحفظ من غوائله ، وإننى أسمع وأرى ما يجرى بينكما وبينه من قول أو فعل وأحدث فى كل حال ما يصرف شره عنكما .

والخلاصة — لست بغافل عنكما ، وإنى سأفعل ما يؤدى إلى حفظكم ونصركم عليه ، فلا تأبها به ، ولا تهتما بأمره .

( فأتياه فقولا إنا رسولا ربك ) أى فقابلاه وقولا له : إن الله أرسلنا إليك - وقد أمرا بتبليغه ذلك من أول وهلة ، ليعرف لهما حقهما ، ويفكر فيما يقابلهما به من الرد على ما ادعيا .

وفى التعبير بقولهما ( ربك ) إيماء إلى أن ما ادعيته من الربوبية لنفسك ، مما لا ينبغي أن يلتفت إليه ، ولا أن ينظر إليه نظرة الاعتبار والصدق .

( فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ) أى فأطلق بنى إسرائيل من الأسر ، ولا تعذبهم بتسخيرك إياهم فى شاق الأعمال كالخفر والبناء ونقل الأحجار ، وقد كان المصريون يستخدمونهم هم ونساءهم فى تلك الأعمال .

وإنما بدأ بهذا الطلب دون دعوة هذا الطاغية وقومه إلى الإيمان ، لأنه أخف وأسهل من ذلك ، لما فيه من تبديل الاعتقاد وهو عسر شاق على النفس .

ثم ذكر ما يوجب امتثال أمرهما ، ويؤكد دعوى رسالتهما بقولهما .  
( قد جئناك بآية من ربك ) أى قد جئناك بالحجة البالغة والبرهان الساطع على أنه أرسلنا إليك ، وإن لم تصدقنا فيما نقول أريناكما .

( والسلام على من اتبع الهدى ) أى والسلامة والأمن من العذاب فى الدنيا والآخرة لمن اتبع رسل ربه ، واهتدى بآياته التى ترشد إلى الحق وتنيل البغية ، وتبعد عن الغى والضلال .

قال الزجاج : أى من اتبع الهدى سلم من سخط الله وعذابه ، وليس بتجنية ، والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب اه .

ويمثل هذا كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم قال : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم يؤتلك الله أجرك مرتين .

وفى هذا ترغيب فى التصديق على أتم وجوهه ، وتنفير من مخالفته ، وصد عنها على أقصى غاية كما لا يخفى .

ثم ذكرنا علما سبق لهما من النصيح والإرشاد بقولهما .  
 ( إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ) أى إنا قد أخبرنا الله  
 فيما أوحاه إلينا أن عذابه الذى لانفاد له ولا انقطاع فى الدنيا والآخرة ، على من  
 كذب بما ندعو إليه من توحيد الله وطاعته وإجابة رسله ، وأدبر معرضا عما جئناه  
 به من الحق .

وجاء بمعنى الآية قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ ظَنَّ . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ  
 الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى » وقوله : « فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى .  
 الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى » وقوله : « فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى » .

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ  
 خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ  
 رَبِّى فِى كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّى وَلَا يَنْفَسِ (٥٢) الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ  
 مَهْدًا وَسَوَّلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا  
 مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُّوا وَارْزَعُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى  
 النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً  
 أُخْرَى (٥٥) .

### شرح المفردات

أعطى كل شيء خلقه : أى أعطى كل نوع صورته وشكله الذى يشاكل  
 ما نيط به من الخواص والمنافع ، ثم هدى : أى ثم عرفه كيف يرتفق بما أعطى له ،  
 البال : الفكر؛ يقال خطر ببالى كذا، ثم أطلق على الحال التى يعنى بها وهو المراد هنا



في كتاب : أى دفتر مقيد فيه؛ والمراد بذلك كمال علمه الذى لا يضيع منه شيء ، ضل الشيء : أخطأه ولم يهتد إليه ، ونسيه : ذهب عنه ولم يخطر بباله ، والمهد : ما يهتد للصبي ويفرش له : أى جعل الأرض كالمهد ، وسلك : أى سهل ، والسبل : واحدها سبيل : أى طريق ، أزواجاً : أى أصنافاً ، شتى : واحدها شتيت كمرض ومرضى : أى مختلفة النفع والطعم واللون والشكل ، آيات : أى لدلالات ، والنهى واحدها نهية ، ( بالضم ) العقل سمى به لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح .

### المعنى الجملى

اعلم أن موسى وهرون عليهما السلام سارعا إلى الامتثال وجاءا فرعون وأبلغاه ما أمرا به ، فسألهما سؤال الإنكار والجحد للصانع الخالق لكل شيء وربّه ومليكه ، ودار بينهما من الحوار ما قصه الله علينا .

روى عن ابن عباس أنهما لما جاءا إلى بابه أقاما حيناً لا يؤذن لهما ، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد ، فدخلوا وكان من الحوار ما أخبرنا الله به .

### الإيضاح

( قال فن ربكما يا موسى ) أى إذا كنتما رسولى ربكما الذى أرسلكما فأخبرانى من ربكما الذى أرسلكما ؟ .

وإنما خص موسى بالنداء مع توجيه الخطاب إليهما ، لما ظهر له أنه هو الأصل وهرون وزيره .

فأجاب موسى عن سؤاله :

( قالوا ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ) أى ربنا الذى أعطى كل شيء ما يليق به مما قدر له من الخواص والمزايا ، فأعطى العين الوضع الذى يطابق ما يراد بها من الإبصار ، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع ، وهكذا الأنف واليد والرجل وجميع أعضاء الجسم .

(ثم هدى) أى ثم أرشده كيف ينتفع بما أعطاه ويرتفق به ، وكيف يصل بذلك إلى بقاءه وكاله إما اختيارا كما فى الحيوان وإما طبعاً كما فى النبات والجماد .

وخلاصة هذا — ربنا الذى خلق كل شىء على الوجه الذى يليق بما قدر له من المنافع والخواص ، وأرشده كيف ينتفع بما خلق له ، وجعل ذلك دليلاً على وجوده ، وعظيم جوده ، وكأنه يقول له : إن ذلك الخالق والمهادى هو الله .

وبعد أن أخبر موسى فرعون بأن ربه الذى أرسله هو الذى خلق ورزق وقدر — شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى الذين لم يعبدوا هذا الإله ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(قال فما بال القرون الأولى ؟) أى فما حال القرون الماضية كعاد وثمود الذين لم يعبدوا الله بل عبدوا غيره ؟ .

فأجاب موسى :

(قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) أى إن ذلك من علوم الغيب التى لا يعلمها إلا الله ، فهو الذى ضبط أعمالهم وأحصاها فى كتاب لا يشذ عنه شىء ولا يفوته شىء لا كبير ولا صغير ، ولا ينسى شيئاً ، وسيجزئهم بما عملوا جزاء وفاقاً .

وقصارى ذلك — إن علمه تعالى محيط بكل شىء ، وأنه لا ينسى شيئاً تبارك وتعالى ، فعلمه ليس كعلم المخلوقين الذى يعتريه النقص من وجهين : عدم الإحاطة بالأشياء ، ونسيانها بعد علمها .

وإنما سأل فرعونُ هذا السؤال لخوفه أن يزيد موسى فى إظهار تلك الحجة فيستبين للناس صدقه ، فأراد صرفه عن ذلك ، وشغله بالقصص والحكايات التى لا تعلق لها بشئون رسالته ، لكن موسى كان أحرص من أن يهتم بمثل هذا ، ومن ثم أوجز فى رده ، ووكل أمر ذلك إلى ربه .

وإجمال سؤاله — إنه إذا كان الأمر كما ذكرت ففصل لنا حال الماضين من سعادة وشقاء ، فرد عليه السلام عليه بأن علم ذلك إلى الله .

ثم عاد إلى تميم كلامه الأول بإبراز الدلائل على الوجدانية فقال :  
(الذى جعل لكم الأرض مهذا) أى ربى الذى لا يضل ولا ينسى هو الذى جعل لكم الأرض كالمهاد تتمهدونها وتستقرون عليها ، فتقومون وتنامون وتسافرون على ظهرها .

(وسلك لكم فيها سبلا) أى وجعل لكم فيها طرقا بين الجبال والأودية تمشون فى مناكبها وتسلكونها من قطر إلى قطر لتقضوا مآربكم ، وتلتفتوا بمراقفها .  
ونحو الآية قوله : « وَجَعَلْنَا فِيهَا حِجَابًا سُبُلًا لِّعَلَّاهُمْ يَهْتَدُونَ » .

(وأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى) أى وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مطرا فأخرج به مختلف أنواع النبات من زروع وثمار حامضة وحلوة ؛ وهى أيضا مختلفة النفع واللون والرائحة والشكل ، بعضها يصلح للإنسان ، وبعضها يصلح للحيوان ؛ وفى هذا بيان لنعمه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذى يولد تلك المنافع .

(كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ) أى فأخرجنا أصناف النبات قائلين لكم كلوا وارعوا أنعامكم الخ . فشىء منها أعد اطعامكم وفاكهتكم ، وشىء أعد لأنعامكم قوتا لها أخضر ويابس .

(إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) أى إن فيما وصفت لكم من قدرة ربكم وعظيم سلطانه — لأدلة على وحدانيته وأنه لا إله غيره إذا كنتم من ذوى العقول راجعة ، والأفكار الثاقبة .

ولما ذكر سبحانه منافع الأرض والسما بين أنها غير مقصودة لذاتها ، بل هى وسائل إلى منافع الآخرة فقال :

(منها خلقناكم) أى من الأرض خلقنا النطفة المتولدة من الأغذية التى تكونت

منها بوسائط ، إذ الغذاء إما حيوانى وإما نباتى ، والحيوانى ينتهى إلى نباتى ، والنبات  
إنما يحدث من امتزاج الماء بالتراب .

( وفيها نعيدهم ) أى وفى الأرض نعيدهم بعد مماتهم فتصيرون ترابا كما كنتم  
قبل نشأتكم .

( ومنها نخرجكم تارة أخرى ) أى وسنخرجكم منها بعد مماتهم مرة أخرى بتأليف  
أجزاءكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ، ثم نرد الأرواح من مقرها إليها .  
وجاء بمعنى الآية قوله : « فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » وقوله :  
« يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » وفى الحديث  
« إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حضر جنازة ، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب  
فألقاها فى القبر وقال : منها خلقناكم ، ثم أخذ أخرى وقال وفيها نعيدهم ، ثم أخرى  
وقال : ومنها نخرجكم تارة أخرى » ، وأخرج أحمد والحاكم عن أبى أمامة قال : « لما  
وضعت أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القبر قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : منها خلقناكم وفيها نعيدهم ومنها نخرجكم تارة أخرى . » بسم الله وفى  
سبيل الله وعلى ملة رسول الله .

وَلَقَدْ آرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا  
مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنُنَافِثَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ يَمِينُنَا  
وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ  
يَوْمُ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) .

### شرح المفردات

أبى امتنع ، موعِد : أى ميعادا معيناً ، سوى : أى مستويا لا جبل فيه ولا وهاد  
بحيث يستر النظارة ، يوم الزينة : يوم عيد كان لهم ، يخشرون الناس : أى يجمعون ،  
والضحى : وقت ارتفاع النهار .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه سؤال فرعون عن رب موسى - قفى على ذلك بيان أنه بصره بالآيات الدالة على توحيد الله كقوله: ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، وقوله: الذى جعل لكم الأرض مهذا، والدالة على نبوته كالقاء العصا وصيرورتها ثعبانا ونزع يده من تحت جناحه فتخرج بيضاء من غير سوء، فعلم كل هذا وكذب به كفرا وعنادا كما قال: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا» الآية .

## الإيضاح

(ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) أى ولقد بصرنا فرعون وعرفناه آياتنا الدالة على قدرتنا وعلى نبوة موسى فكذب بها وأبى أن يذعن للحق، وقد يكون المراد بها الآيات التسع المذكورة فى قوله: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ». ثم فصل سبحانه صفة تكذيبه وإبائه فقال:

(قال أحيئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى؟) أى قال منكرا مستقبعا لما فعل موسى: أحيئنا من مكانك الذى كنت فيه بعد ما غبت عنا، لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر؟ إذ تستولى على عقول الناس فيتبعونك وتكاثرتنا بهم. وخلاصة ما قال - أحيئت يا موسى لتوهم الناس بأنك نبي يجب عليهم اتباعك والإيمان بما حيئت به إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها ويكون لك الملك فيها، وإنما قال تلك المقالة ليحمل قومه على السخط على موسى والغضب منه، بإظهار أن مراده ليس مجرد إنجاء بنى إسرائيل من أيديهم، بل مقصوده إخراج القبط من أوطانهم وحيازة أموالهم وأملاكهم جملة، وبذا يسد عليه الباب فلا يتوجه أحد إلى اتباع دعوته مباغلة فى المدافعة عن بلادهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولا ينظرونه إلى معجزاته ولا يلتفتون إلى ما يدعوا إليه من الخير، ثم ادعى أنه سيعارضه بمثل عمله فقال:

(فلنأتينك بسحر مثله) أى فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك ، فإن عندنا مثل ما عندك ، فلا يغررك ما أنت فاعل .

(فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت) أى فاجعل بيننا وبينك ميعاتا وموعدا نجتمع نحن وأنتم فيه فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر .

وإنما قال تلك المقالة ليبين أنه قوى القلب جلد متمكن من تهيئة وسائل المعارضة ، وترتيب أسباب المغالبة ، طال الأمد أو قصر .

(مكانا سوى) أى ويكون الاجتماع فى مكان مستو من الأرض لانخفاض فيه ولا ارتفاع ، فلا جبال ولا وهاد تستر بعض الحاضرين عن بعض .

وقصارى ذلك — عين لنا زمان المقابلة ومكانها على ألا يكون فيه ما يستر أحدا من الناس عن أحد ليرى ما يصدر منك ومن السحرة .

وغير خاف مافى ذلك من إظهار الجلد وقوة الوثوق بالغبلة .

ثم ذكر رد موسى على ما طلب فقال :

(قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشركم الناس ضحى) أى قال موسى : ميعادكم للاجتماع يوم عيد النيروز وكان رأس سنتهم حين يفرغ الناس من أعمالهم ويجمعون ، ليكون الحفل عاما ويتحدث الناس بذلك الأمر العجيب فى القرى والأمصار ، فتعلو كلمة الله ويظهر دينه ويزهق الباطل وينتصر الحق على رموس الأشهاد .

وفى ذلك من وضوح الحجة ما لا خفاء فيه ، ومن وثوقه بفلجه على خصمه ، وعدم مبالاته به .

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ جَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ رَّانٍ

يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوَصَفَّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى (٦٤)

### شرح المفردات

فتولى فرعون : أى انصرف عن المجلس ، كيده : أى ما يكيد به من السحرة وأدواتهم ، أنى : أى أنى الموعد ومعه ما جمعه من الأعوان والسحرة ، ويلكم : أى هلاككم ، والافتراء : الاختلاق والكذب ، فيسحتكم بعذاب : أى يستأصلكم ويهلككم بعذاب شديد ، فتنازعوا : أى تفاوضوا وتشاوروا ، وأسروا النجوى : أى بالغوا فى إخفاء كلامهم ، بطريقكم المثلى : أى بذهبكم الذى أنتم عليه وهو أفضل المذاهب وأمثلها ، فأجمعوا كيدكم : أى اجعلوا كيدكم مجمعا عليه ، صفا : أى مصطفىين ، لأنه أهيب للصدور ، أفلح : أى فاز بالمطلوب ، استعلى : أى غلب .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن موسى وفرعون اتفقا على موعد يجتمعان فيه وهو يوم عيد لهم - أردف ذلك بذكر مآذره فرعون بعد انصرافه عن المجلس من أمر السحرة وآلات السحر ، وأتى بجميع ذلك ، ثم ذكر أن موسى أوعدهم وحذرهم من عذاب لا قبل لهم به إن أقدموا على ما هم عازمون عليه ، ثم بين أن السحرة حين سمعوا كلام موسى تنازعوا أمرهم وتشاوروا ماذا يفعلون ، وبالغوا فى إخفاء ما يريدون ، وقالوا ماموسى وهرون إلا ساحران يريدان أن يغلباكم ويخرجاك من دياركم ويرجوان أن تتركا دينكم وهو أمثل الأديان وأفضلها ، لتعتنقوا دينهما ، فحذار أن تفعلوا ذلك ولا يتخلفن منكم أحد واثتوا صفا واحدا وقد فاز بالمطلوب من غلب .

## الإيضاح

( فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ) أى فأنصرف عن مجلس الحجاج والمناظرة ،  
 وشرع يُعدّ ما يكيد به من السحرة وآلاتهم وأنصاره وأعوانه ، وكثير ما هم ، ثم أقبل  
 فى الموعد الذى عين ومعه جمعه ، وجلس على سرير ملكه وحوله أ كابر دولته ،  
 واصطفت الرعية يَمَنَّة وَيَسْرَة ، وأقبل موسى يتوكأ على عصاه ومعه أخوه هرون ،  
 ووقف السحرة صفوفًا بين يدي فرعون يحرضهم ويستحثهم ويرغبهم فى جودة العمل  
 ويتمنون عليه وهو يعدم ويمنيهم ، وقد جاء فى سورة الشعراء : « قَالُوا أَأَتْنَاكَ  
 لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمَقَرِّ بَيْنَ » .  
 ثم ذكر سبحانه ما كان من موسى حينئذ فقال :

( قال لهم موسى لا تتفتروا على الله كذبا فيسجتم بعذاب ) أى قال موسى  
 للسحرة : لا تتخلقوا بالكذب على الله ولا تتقولوه عليه ، بأن تدّعوا أن الآيات التى  
 ستظهر على يدي سحر كما فعل فرعون ، فيستأصلكم بعذاب من عنده ، ولا يبقى  
 منكم ولا يذر .

( وقد خاب من افترى ) على الله الكذب ولم يفلح فى سعيه ولم يصل إلى  
 غرضه ، فابتعدوا عن اختلاق الأكاذيب ، ولا تضلوا سواء السبيل ، حتى لا يصيبكم  
 ما أصاب المفتريين الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .  
 ولما سمع السحرة كلام موسى وهرون هاجهم ذلك .

( فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرروا النجوى ) أى فتشاوروا وتفاوضوا ماذا يفعلون ،  
 وبالغوا فى كتمان ما يقولون عن موسى وأخيه حتى لا يسمعا ما يدور من القول ، فيعدّوا  
 للأمر عُدَّتْهُ ، ويهيئوا وسائل الدفاع ، ومن الطبعى فى مثل هذه الأحوال أن يُخفى  
 أحد المتخاصمين كل ما يدبره من وسائل الفوز والفكج عن خصمه الآخر .

ثم بين سبحانه خلاصة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور بقوله :



( قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ) أى إن السحرة قالوا فيما بينهم : إن هذا الرجل وأخاه ساحران خيران بصناعة السحر ، وهما يريدان أن يغلباكم وقومكم ويخرجاكم من دياركم وتخلص لهم الرياسة دونكم .

وخلاصة ما قالوه التفسير منهما لوجوه ثلاثة :

(١) الطعن فى نبوتهما ونسبتهما إلى السحر ، وكل ذى طبع سليم ينفر من السحر ويبغض السحرة ويعلم أن السحر لابقاء له ، ولا ينبغى اتباع من جاء به ولا اعتناق مذهبه وطريقته .

(٢) إن بغيتهما إخراجكم من أرضكم ، ومفارقة الوطن شديدة الوطأة على النفوس ومن ثم قال فرعون : « أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى » .

(٣) إنهما يريدان أن يستوليا على جميع المناصب والرياسات ، ولا يبقيا شيئا من شئون الدولة والتصرف فى أمورها العامة . وإجمال هذا - إنهما إذا تم لهما الأمر أخرجاكم من دياركم ، وتمحضت لهما الرياسة دونكم .

ثم بين السحرة ما يجب لمقاولة هذا الخطر الداهم والبلاء المقبل فقالوا :

( فأجمعوا كيدكم ثم اثبتوا صفا ) أى لاتدعوا شيئا من كيدكم إلا جئتم به كما جاء فى آية أخرى « فَجَمَعَ كَيْدَهُ » ثم اثبتوا مصطفين مجتمعين ، وألقوا ما فى أيديكم دفعة واحدة لتبهروا الأبصار وتعظم هيبتكم لدى النظارة فى هذا المشهد الحافل .

( وقد أفلح اليوم من استعلى ) أى وقد فاز بالمطلوب من غلب منا ، أما نحن فقد وعدنا بالعطاء الجزيل والقرب من الملك : « قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمَنِ الْمُقَرَّبِينَ » وأما هو فسينال الرياسة ، وما مقصدهم من ذلك إلا تشديد العزائم وحفز الهمم ، ليبدلوا أقصى الجهد للفوز والفالج بالمطلوب .

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ  
 بَلْ أَتَقُولُوا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦)  
 فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨)  
 وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ  
 السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ  
 وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي  
 عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقِطْعَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تَصَلِّبْنَكُمْ  
 فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلْتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ  
 عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي  
 هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ  
 مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ  
 لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ  
 فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
 خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)

### شرح المفردات

إيجاس الخوف : الإحساس بشيء منه ، ما في يمينك : هي العصا ؛ وأبهما تفخيا  
 لشأنها ، وتلقف : تتلعق بقوة وسرعة ، صنعوا : أى زوروا وافتعلوا ؛ كيد ساحر :  
 أى كيد سحرى لاحقة له ولا ثبات ، حيث أتى : أى أينما كان ، كبيركم : أى

زعيمكم ومعلمكم. قال الكسائى: الصبى بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال جئت من عند كبرى، من خلاف: أى من حال مختلفة فتقطع الأيدى اليمنى والأرجل اليسرى، أشد عذابا: أى أدوم، تؤثر: أى فضلك ونختارك، فطرنا: أى ابتدعنا وأوجدنا من العدم، فاقض: أى فاحكم، جنات عدن: أى جنات أعدت للإقامة، من تحتها: أى من تحت غرفها، تركى: أى تطهر من أدناس الكفر وأرجاس المعاصى.

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الموعد وهو يوم الزينة، وذكر أنهم قالوا اثنا صفا - ذكر هنا أنهم بعد أن أتوا خيروه بين أن يبدأ بإلقاء مامعه، وأن يبدأوا هم، فاختر الثانية، وحين بدءوا فألقوا حباهم وعصيمهم خاف موسى عاقبة أمره، فأوحى إليه ربه «لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ وَاللَّيْقَ مَا فِي يَمِينِكَ» فسيكون لك الفلج والظفر عليهم، وقد تحقق ما وعد الله به، وكتب له النصر وآمن به السحرة، فلجأ فرعون إلى العناد والاستكبار، وتوعد السحرة بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسيصلبهم في جذوع النخل، فقابلوا تهديده بالازدراء والسخرية، وقالوا إنما أنت مسلط علينا في هذه الحياة الدنيا، وعذابك لا يعدوها، وما عند الله من العذاب لا يضارعه عذاب، وما عنده من الثواب لا يقدر قدره، ففي جناته التى تجرى من تحتها الأنهار مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

### الإيضاح

( قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ) أى فأجمع السحرة كيدهم ثم أتوا صفا فقالوا لموسى: اختر لك أحد الأمرين، إما أن تلقى مامعك، وإما أن تلقى مامعنا.

وهذا التخيير منهم حسن أدب معه وتواضع منهم وتنبيه إلى إعطائه النصفة

من أنفسهم ، وكأن الله أعلم ذلك وعلم موسى أن من الخير له اختيار إلقاءهم أولاً ، لأنهم إذا أبرزوا ما معهم من مكاييد السحر واستنفدوا أقصى مجهودهم ، أظهر الله سلطانه وقذف بالحق على الباطل فدمغه ، وسلط المعجزة على السحر فحقته ، وكانت آية نيرة للناظرين وعبرة بيّنة للمعتبرين ، ومن ثم قال :

( قال بل ألقوا ) أى بل ألقوا أنتم أولاً لنرى ما تصنعون من السحر ، ويظهر للناس حقيقة أمركم ، وحين ألقوا : « قَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ » .

( فإذا حباهم وعصيمهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ) أى فألقوا ما معهم من الحبال والعصى تخيل إلى موسى أنها تمشي ، وجاء في آية أخرى : « فَسَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » .

قيل إنهم حشوها بزئبق الذى من طبعه أن يتأثر سريعاً بحرارة الشمس ، فما أسرع ما تحركت تلك الحبال والعصى حين سقطت عليها أشعة الشمس ، فامتلاً الوادى بحيات يركب بعضها بعضاً .

وخلاصة ذلك — إنهم حشوها بزئبق أو بمادة أخرى إذا وقعت عليها الشمس اضطربت وتحركت واتصل بعضها ببعض ، فمن رآها ظن أنها تمشي وتسعى .

( فأوجس في نفسه خيفة موسى ) أى فأحس موسى بشئ من الخوف حين فوجئ بذلك على مقتضى الطبيعة البشرية حين ترى الأمر الم هول الخيف .

ثم أبان سبحانه أنه ربط على قلبه فقال :

( قلنا لا تخف ) أى قلنا له : هدى روعك واطمئن بالا .

ثم علل ذلك بقوله :

( إنا أنك أنت الأعلى ) أى إناك ستنتصر عليهم وستكون لك الغلبة ، فالعاقبة للمتقين .

( وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ) أى وألق عصاك تبتلع حبالهم وعصيمهم التى سحروا بها أعين الناس حتى خيل إليك أنها تسعى .

وإنما أوتر إيهام العصا تهويلا لأمرها ، وتقنيا لشأنها ، وإيدانا بأنها ليست من جنس العصى المعهودة ، لما سينشأ عنها من عجيب الأثر وغريب الصنع .  
( إن ما صنعوا كيد ساحر ) أى إن الذى فعلوه بعد تدرب كثير وممارسة طويلة كيد سحرى لاحقيقة له ولا بقاء .

وخلاصة ذلك — إن الذى معك يا موسى معجزة إلهية ، والذى معهم تمويه وتلفيق ظاهر عليه الزور والبهتان ، فكيف يتعارضان ؟ .

( ولا يفلح الساحر حيث أتى ) أى ولا ينال الساحر مقصوده بالسحر ، خيرا كان أو شرا حيثما كان .

ثم ذكر سبحانه ما يدل على أنه امتثل أمر ربه وألقى العصا وكان ما وعد به من تلفقها لما صنعوا فقال :

( فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى ) أى فألقى ما فى يمينه وصار حية تلفق ما صنعوا وظهر للسحرة جليلة الأمر وأن ما عمله ليس بالسحر ، فهو ليس من فنون السحر التى حذقوها ، ولا من أنواع الخيل التى عرفوها ، وإنه الحق الذى لا مرية فيه ، ولا يقدر على مثله إلا من يقول للشيء كن فيكون ، حينئذ وقعوا سجدا لله وقالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون .

روى أن رئيسهم قال : كنا نغلب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا ، فلو كان هذا سحرا فأين الذى ألقيناه ، فاستدلوا بتغيير أحوال الأجسام على وجود الصانع القادر ، وبظهورها على يد موسى على كونه رسولا صادقا من عند الله ، لاجرم تابوا وآمنوا وأتوا وهم خاضعون ساجدون .

قال صاحب الكشف — سبحان الله ، ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود .

روى عن ابن عباس أنه قال : كانوا أول النهار سحرة ، وفى آخره شهداء بررة ؛ وروى عنه عكرمة أنه قال : كان السحرة سبعين رجلا أصبحوا سحرة وأمسا شهداء .

وإنما قالوا رب هرون وموسى ولم يقتصروا على قولهم ( رب العالمين ) لأن فرعون كان قد ادعى الربوبية فقال : « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى » والألوهية إذ قال : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي » فلو قالوا ذلك فحسب لقال فرعون : آمنوا بى ، وإنما لم يقتصروا على ذكر موسى بل ذكروا هرون وقدموه عليه خوفا من هذه الشبهة أيضا ، إذ أن فرعون كان يدعى ربوبيته لموسى ، لأنه ربه فى صغره كما قال : « أَلَمْ نَرْبُّكَ فِينَا وَلِيدًا » .

ولما خاف فرعون أن يصير ذلك سببا لاقتداء الناس بهما فى الإيمان بالله ورسوله ألقى شبهة فى النبى ونبوته .

( قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ) أى إنكم قد فعلتم جريرتين وارتكبتن جرمين :  
( ١ ) إنكم آمنتم له قبل البحث والتفكير ، فأيمانكم لم يكن عن بصيرة وأناة فلا يعتد به .

( ٢ ) إنكم تلاميذه فى السحر ، فتواطأتم على أن تظهروا العجز من أنفسكم ترويجا لدعوته وتفخيا لأمره .

وبعد أن أورد هذه الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيرا لهم من الإيمان ، وتحذيرا لغيرهم عن الاقتداء بهما فقال :

( فلا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ) أى أقسم بالله لأقطعنها مختلفات ، بأن تقطع الأيدي اليمنى والأرجل اليسرى ، وإنما اختار ذلك دون القطع من وفاق ، لأن فيه إهلاكا وتقويتا للمنفعة .

( ولأصلبنكم فى جذوع النخل ) زيادة فى إيلاكم وتشهيرا بكم .  
وخلاصة ذلك — لأجعلنكم مثلة ، ولأزيلن مالكم من منافع ولأشهرن بكم ، قال ابن عباس فكان أول من عذب بهذا العذاب .  
( ولتعلن أينا أشد عذابا وأبقى ) أى ولتعلن أنا أو موسى أشد عذابا وأبقى .

وفي ذلك إيماء إلى اقتداره وقهره وبيان ما ألقه وضري به من تعذيب الناس بأنواع العذاب ، كما فيه تحقير لشأن موسى واستضعاف له مع السخرية منه .

ثم لما صال عليهم بذلك وتوعدهم هانت عليهم أنفسهم في الله .  
( قالوا لن نؤثر على ما جاءنا من البينات ) أى لن نختارك بالإيمان والافتقار على ما جاءنا من الله على يد موسى من المعجزات التي اشتملت عليها العصا .

وفي هذا إشارة إلى أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان بموسى ، وإلا فعل بهم ما أوعدهم به .

( والذي فطرنا ) أى لن نختارك على ما جاءنا من الهدى ، وعلى فاطرنا وخالقنا الذى أنشأنا من العدم ، إذ هو المستحق للعبادة والخضوع ، لا أنت .

ولما علموا أنهم متى أصروا على الإيمان ، فعل فرعون ما أوعدهم به قالوا :  
( فاقض ما أنت قاض ) أى فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك ، فوعيدك لا يرحمنا عن إيماننا واطمئناننا بما صرنا إليه .

ثم بينوا ما لأجله يسهل عليهم احتمال ذلك فقالوا :  
( إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ) أى إنما لك تسلط علينا في هذه الدار الدار الزوال ونحن نرغب في دار البقاء .

وقصارى ردهم — إنك إنما تصنع ما تهوى في هذه الدنيا فحسب ، وإنا لآئبا بنعيمها ولا نرهب عذابها .

( إنا آما برنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ) أى إنا آما برنا الحسن إلينا طوال أعمارنا ، ليستمر ما اجترحنا من الذنوب والآثام ، ولا سيما ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آيات الله ومعجزاته .

روى الحسن أن السحرة الذين حشدوا من المدائن ليعارضوا موسى ، أحضروا مكرهين ، وأكروهوا على إظهار السحر ، وروى أن رؤساء السحرة كانوا اثنين

وسبعين ، اثنان منهم من القبط ، والباقيون من بنى إسرائيل أكرههم فرعون على تعلم السحر .

( والله خير وأبقى ) أى والله خير منك جزاء وأدوم ثوابا مما كنت دعوتنا إليه ومنيتنا به .

ولم يرد دليل على أنه نفذ ما صمم عليه في عقابهم ، ولكن الراجح أنه نفذ ذلك كما يرشد إلى ذلك قول ابن عباس وغيره من السلف : أصبحوا سحرة وأمسا شهداء بررة .

ثم ختم السحرة كلامهم بشرح أحوال المجرمين وأحوال المؤمنين يوم العرض والحساب عظة لفرعون وتحذير له من نعمة الله وعذابه السرمدى وترغيبا له في ثوابه الأبدى .

( إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ) أى من يلق الله وهو مجرم بكفره ومعاصيه فإن له جهنم لا يموت فيها فينتهى عذابه ، ولا يحيى حياة طيبة ينتفع فيها بالنعيم المقيم ، قال المبرد : لا يموت ميتة مريحة ولا يحيى حياة ممتعة ، فهو يألم كما يألم الحى ويبلغ به حالة الموت فى المكروه ، إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم ؛ والعرب تقول : فلان لآحى ولا ميت . إذا كان غير منتفع بحياته . كما قالت زوج صخر حين سئلت عنه وهو مريض : لا هو حى فيرجى ، ولا ميت فينبى .

ونحو الآية قوله : « لَا يَقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ » وقوله : « وَبِتَجَنُّبِهَا الْأَشْثَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى » وقوله : « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ » .

( ومن يأتته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ) أى ومن لقي ربه مؤمنا به وبما جاء به رسوله من عنده من المعجزات التى من جملتها ما رأيناه وشاهدناه ثم عمل صالح الأعمال فهو لأهلهم بسبب إيمانهم وجليل أعمالهم المنازل الرفيعة والدرجات العالية .



وفي الصحيحين : « إن أهل عليين ليروُنَّ مَنْ فوقهم كما ترون الكوكب العابر في أفق السماء لتفاضل ما بينهم ، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء ، قال بلى ، والذي نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » . وفي السنن : إن أبا بكر وعمر لمهم ونعمًا .

ثم فسر تلك الدرجات العلى بقوله :

( جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ) أى تلك الدرجات العلى هى جنات إقامة تجرى من تحت غرفها الأنهار ما كثر فيها أبدا .

ثم بين سبب فوزهم بهذا النعيم فقال :

( وذلك جزاء من تزكى ) أى وذلك الفوز الذى أوتوه جزاء لهم على طهارة أنفسهم من دنس الكفر ومن تدسية أنفسهم بأضرار الذنوب والآثام ، وعلى عبادتهم لله وحده لا شريك له واتباعهم للنبيين والمرسلين فيما جاءوا به من عند ربهم .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَا كُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) .

### شرح المفردات

السرى والإسراء : السير ليلا ، اضرب لهم : أى اجعل لهم ، يبسا : أى طريقا يابسًا لا ماء فيه ، والدرك (بالفتح والسكون) : الإدراك والالحوق ، تخشى : أى تخاف

غرقا ، وأتبع وتبع : بمعنى ، فغشيهم من اليمّ ماغشيهم : أى فغمهم وعلامهم من البحر ما علامهم من الأمر الهائل الذى لا يعلم كنهه إلا الله ، وأضل فرعون قومه : أى سلك بهم مسلكا أداهم إلى الخسران فى دينهم ودنياهم إذ أغرقوا فأدخلوا نارا ، وما هدى : أى وما أرشدهم إلى طريق يصل بهم إلى طريق السعادة ، الأيمن : أى الذى عن يمين من ينطلق من مصر إلى الشام ، المن : نوع من الخالوى يسمى الترنجيين ، والسلى : طائر شبيه بالسكّانى ، ولا تطغوا فيه : أى فلا تأخذوه من غير حاجة إليه فيحل عليكم غضبي : أى ينزل بكم ، هوى : سقط وهلك ، غفار : كثير المغفرة والستر للذنوب ، اهتدى : أى لزم الهداية واستقام .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص موسى مع سحرة فرعون وأنه تم له الغلب عليهم وأن السحرة آمنوا به وأن فرعون أبى أن يذعن للحق وتماذى هو وقومه فى العناد والإعراض عن سبيل الرشاد - أردف ذلك بذكر ما آل إليه أمر فرعون وقومه من الفرق فى البحر حين تبعوا موسى للحاق به لما خرج من مصر ذاهبا إلى الطور ، وطوى فى البين ذكر ما جرى على فرعون وقومه بعد أن غلبت السحرة - من الآيات المفصلة التى حدثت على يد موسى فى مدى عشرين سنة على حسب ما فضل فى سورة الأعراف ، وكان فرعون كلما جاءت آية عذاب وعد أن يرسل بنى إسرائيل حين يتكشف عنه العذاب ، فإذا هو انكشف نكص على عقبيه ونكث فى عهده ، حتى أمر الله موسى بالهجرة والخروج ليلا من مصر ، ثم عدد بعدئذ نعمه الدينية والدنيوية على بنى إسرائيل ، فذكر أنه أنجاهم من عدوهم وقد كان يُنزل بهم ضروبا من الظلم : من قتل وإذلال وتعب فى الأعمال ، وأنه ذكر أنه أنزل عليهم كتابا فيه بيان دينهم وتفصيل شريعتهم ، وأنه أنزل لهم المن والسلى ، وأنه أمرهم بأكل

الطيبات من الرزق وزجرهم عن العصيان ، وأن من عصى ثم تاب كانت توبته مقبولة عند ربه .

### الإيضاح

(ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى) أي ولقد أوحينا إلى نبينا موسى حين تابعنا له الحجاج على فرعون فأبى أن يستجيب لأمر ربه وتمادي في طغيانه : أن أسر بعبادي الذين أرسلتك لإنقاذهم من هذا الطاغية ، وأخرج بهم من مصر ، فاتخذ لهم طريقا يابسا في البحر ولا تخف من فرعون وقومه أن يدركوك ولا تخش أن يغرقتك البحر .

وفي التعبير عن بني إسرائيل (عبادي) إظهار للعناية بأمرهم والرحمة لهم ، وتنبية إلى قبح صنيع فرعون بهم ، إذ هو قد استعبدهم وفعل بهم من ضروب الظلم ما فعل ولم يراقب فيهم مولاهم الحق .

(فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ما غشيهم) أي ولما سرى بهم موسى أتبعهم فرعون بجنوده حين قطعوا البحر فغشيهم من اليمّ ما لاسيل إلى إدراك كنهه ، ففرقوا جميعا .

(وأضل فرعون قومه وما هدى) أي وقد سلك بقومه سبيل الضلال في دينهم ودينام ، وما هداهم إلى سبيل الرشاد ، وفي هذا تهكم به إذ قال « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » .

ثم شرع سبحانه يعدد نعمه على بني إسرائيل فقال :

(١) (يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم) فرعون وقومه حين كانوا يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وأقرعينكم منهم إذ أغرقهم وأنتم تنظرون كما قال : « وَأَعْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » .

(٢) ( وواعدناكم جانب الطور الأيمن ) فكلما تكلمنا وأعطيناك التوراة وفيها تفصيل شريعتك .

(٣) ( ونزلنا عليكم المن والسلوى ) فكان ينزل عليكم المن وأتم في التيه مثل الثلج بياضا مع حلاوة شديدة من الفجر إلى طلوع الشمس ، وتبعث إليكم ريح الجنوب بطير السمانى فيأخذ كل منكم مايكفيه .  
( كلوا من طيبات ما رزقناكم ) أى وقلنا لهم كلوا من تلك اللذائذ التى أنعمنا بها عليكم .

( ولا تطغوا فيه فيحمل عليكم غضبي ) أى ولا تطغوا فى رزق بالإخلال بشكره وتعدى حدودى فيه بالسرف والبطر والاستعانة به على المعاصى ومنع الحقوق الواجبة فيه ، فينزل عليكم غضبي ، وتجب عليكم عقوبتى .  
( ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ) أى ومن ينزل به غضبي فقد شقى وهلك .  
( وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ) أى وإني لذو مغفرة عظيمة لمن يتوب من شركه ، ويقطع عن ذنبه ، ويخلص لى فى العمل ويؤدى فرائضه ويحْتَنِبُ معاصي ويستقيم حتى الموت .

وَمَا أَعَجَلَك عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِعَلَيْنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا

فَكَذَلِكَ أَتَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقَالُوا  
هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَتَنَى (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا  
وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) .

### شرح المفردات

يقال جاء على أثره (بفتححتين وبكسر فسكون): إذا جاء لاحقا به بلا تأخير ،  
فتنا قومك : أى اختبرناهم ، وأضلهم : أى أوقعهم فى الضلال والخسران ، والسامرى :  
من شعب إسرائيل من بطن يقال له السامرة واسمه موسى ، والأسف : الحزين ،  
والوعد الحسن : إعطاء التوراة التى فيها هدى ونور ، والعهـد : زمان الإنجاز ، موعـدى :  
أى وعـدكم إياى بالثبات على الإيمان وقيامكم بأداء ما أمرتم به من التكليف ، بملكنا :  
أى بتدريتنا واختيارنا ، والأوزار : الأثقال والأحمال ؛ والمراد بالقوم هنا القبط ،  
فقدفتاها : أى طرحناها فى النار ، جسدا : أى جثة لاروح فيها ، والخوار : صوت  
العجل ، فتنى : أى فغفل عنه موسى وذهب يطلبه فى الطور ، أن لا يرجع إليهم  
قولا : أى لا يرد عليهم جوابا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا : أى لا يقدر أن يدفع  
عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أوحى إلى موسى أن يخرج هو وقومه من مصر ليلا  
ويخترق بهم البحر ولا يخشى غرقا ولا دركا من فرعون وجنده ، وأن البحر أغرق  
فرعون وقومه جميعا حينما أرادوا اللحاق ببني إسرائيل ، ثم عدد نعمة عليهم من  
إنجائهم من عدوهم وإنزال المن والسلوى عليهم ، ثم أمرهم بأكل الطيبات من الرزق  
ونهاهم عن الطغيان ، ثم ذكر أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا . أعقب هذا  
بما جرى بينه سبحانه وبين موسى من الكلام حين موافاته الميقات على حسب

المواعدة التي ذكرت آنفاً ، وبما حدث من فتنه السامري لبني إسرائيل ورجوع موسى إليهم غضبان أسفاً ، ثم معاقبته لهم على ما صنعوا ، ثم ذكر الحيلة التي فعلها السامري حين أخرج لهم من حليهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ، فرد الله عليهم ووضحهم بأن هذا العجل لا يجيبهم إذا سألوا ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً في دينهم ولا دنياهم .

### الإيضاح

(وما أعجلك عن قومك يا موسى ؟) المراد بالقوم النقباء السبعون ، وإعجاله عنهم تقدمه عليهم ، أى أى شيء عجّل بك عن قومك وجعلك تتقدم عليهم ؟ والمراد الإنكار عليه في تقدمه عليهم ، لأن ذلك يقتضى إغفال أمرهم وعدم العناية بهم مع أنه مأمور باستصحابهم وإحضارهم معه ، وإنكار للعجلة في ذاتها أيضاً ولا سيما من أولى العزم الذين يجدر بهم مزيد الحزم .

(قال هم أولاء على أترى) أى قال موسى محبباً ربه : هم أولاء بالقرب مني آتون على أترى ، وما تقدمتهم إلا بخطا يسيرة لا يعتدّ بها ، وليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها بعض الرفقة على بعض .

(وعجلت إليك رب لترضى) أى وعجلت إليك رب لتزداد عني رضا ، بالمسارعة إلى امتثال أمرك ، والوفاء بعهدك .

وخلاصة معذرتة — إنى اجتهدت أن أتقدم عن قومي بخطا يسيرة ، ظناً مني أن مثل ذلك لا ينكر ، فأخطأت في اجتهادي ، وقد حملني على ذلك طلب الزيادة في مرضاتك ، وكأنه عليه السلام يقول : إنما أغفلت هذا الأمر مبادرة إلى رضاك ومسارة إلى الميعاد ، والموعود بما يسرّ يود لو ركب أجنحة الطير ليحظى بما يبتغى ويريد .

(قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك) أى قال سبحانه لموسى : فإنا قد اخترنا

قومك الذين خلفتهم مع هرون من بعد فراقك . قال ابن الأنبارى صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم ، وهم الذين خلفهم مع هرون اه . وهذه الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوماً . (وأضلهم السامرى) أى دعاهم إلى الضلال باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته وكان من قوم يعبدون البقر فدخل فى دين بنى إسرائيل فى الظاهر وفى قلبه حنين لعبادة البقر فأطاعه بعض وامتنع آخرون .

(فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) أى فانصرف موسى إلى قومه بنى إسرائيل بعد انقضاء الليالى الأربعين - مغتاضاً من قومه ، حزينا لما أحدثوا من بعده من الكفر بالله . روى أنه لما رجع موسى سمع الصياح والضجيج وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة .

قال القرطبى : سئل الإمام أبو بكر الطرشوشى عن جماعة يجتمعون ويكثرون من ذكر الله وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم ثم إنهم يضربون بالقضيب على شئ من الطبل ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه ، ويحضرون شيئاً كونه ، فهل الحضور معهم جائز أم لا ؟ فأجاب : يرحمك الله مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم مجلداً له خوار فقاموا يرقصون حوله ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل ؛ وأما الطبل فأول من اتخذ الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله ، وإنما كان مجلس النبى مع أصحابه ، كأنما على رؤوسهم الطير من الوفاء ، فينبغى للسلطان أن يمنعه من الحضور فى المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم ، وهذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين اه . (قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً) لاسبيل لكم إلى إنكاره ، فقد وعدكم بإزالة الكتاب الهادى إلى الشرائع والأحكام ، ووعدكم الثواب العظيم فى الآخرة

بقوله : « وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لَّيِّنٌ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » ووعدكم أنكم ستملكون أرض الجبارين وديارهم .

(أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي؟) أي أفطال عليكم الزمان فنسيتم وعدكم إياي بالثبات على ديني إلى أن أرجع من الميقات ؟ أم تعمدتم فعل ما يكون سببا لحلول غضب ربكم عليكم بعبادتكم للعجل وكفركم به ؟

وخلاصة ذلك — أفطال عليكم العهد فنسيتم أم تعمدتم المعصية فأخلفتم ؟ ( قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ) أي قالوا ما أخلفنا عهدك بالثبات على دينك إلا لأننا لم نملك أمرنا ، فلو خلدنا وأنفسنا ولم يسوّل لنا السامري ماسوّه ، لما أخلفنا . وفي هذا إيحاء إلى أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ وأنهم لم يطيقوا حمل أنفسهم على الصواب ومن ثم وقعوا فيما وقعوا فيه من الفتنة . وقصارى كلامهم : إن السامري رسول لنا ماسول وغلب على عقولنا فخالفنا عهدك .

(ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها) أي ولكن غلبنا موسى السامري ، إذ حملنا أحمالا من حلي القبط التي استعمرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر بعلّة أن لنا عيدا غدا ، وقال : إنما حبس موسى عنكم بشؤم حرمتها ثم أمرنا أن نحفر حفرة ونعلاها نارا وأن نقذف الحلي فيها فقذفناه .

وسميت أوزارا : أي آثاما لأنه لا يحل لهم أخذها ، ولا تحمل لهم الغنائم في شريعتهم .

(فكذلك ألقي السامري) أي فكما قذفنا نحن تلك الأثقال ، ألقي السامري ما كان معه منها .

(فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) أي فأخرج لهم من تلك الأثقال التي



قذفوها جسد عجل من ذهب لأرواح فيه ، وله خوار كخواره ، إذ هو قد صنعه بدقة وجعل فيه أنابيب يظهر فيها الصوت بمرور الريح بعد أن جعله في اتجاهه .

(فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى) أى فقال السامري ومن افتتن به أول مارآه .

هذا هو إلهكم وإله موسى فاعبدوه ، وقد غفل عنه موسى وذهب يطلبه في الطور .

فرد عليهم سبحانه مقبحا أفعالهم مسفها أحلامهم فقال :

(أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا؟) أى أفلا يعتبرون

و يتفكرون في أن هذا العجل لا يرجع إليهم كلاما ولا يرد عليهم جوابا ، وأنه لا يقدر

أن يدفع عنهم ضرا ولا يجلب لهم نفعا .

وقصارى مايقول — إنه عاجز عن الخطاب وعن النفع والضر فكيف

يتخذونه إلهًا .

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ

الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى

يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢)

أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَبْنَ أُمُّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي

إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ

قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّاتُ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ

فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ يُخْلَفَهُ

وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ

نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ  
عِلْمًا (٩٨) .

### شرح المفردات

فنتقم به : أى وقعتم فى الفتنة والضلال ، فاتبعونى : أى فى الثبات على الحق ،  
لن نبرح : أى لا نزال ، عاكفين : أى مقيمين ، بلحيتى ولا برأسى : أى بشعر  
لحيتى ولا بشعر رأسى ، خشيت : أى خفت ، ولم ترقب قولى : أى ولم تراع ،  
فما خطبك : أى ما شأنك وما الأمر العظيم الذى صدر منك ، بصرت بما لم يبصروا به  
( بضم الصاد فيهما ) : أى علمت ما لم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له ؛ يقال بصر  
بالشئ إذا علمه وأبصره إذا نظر إليه ، والرسول موسى عليه السلام ، وأثره سنته ، فنبذتها :  
أى طرحتها ، وسولت لى نفسى : أى زينت وحسنت ، لامساس : أى لاختلاطة  
فلا يخالطه أحد ولا يخالط أحدا ، فعاش وحيدا طريدا ، لن تخلفه : أى سيأتيك به الله  
حتما . ظلت ( أصله ظلمات دخله حذف ) : أى أقمت ، لنحرقه : أى لنبردنه بالمبرد ،  
لنفسفه : أى لنذرينه ، فى اليم : أى فى البحر ، وسع كل شئ علما : أى وسع علمه  
كل شئ وأحاط به .

### المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن عبادتهم للعجل مخالفة لقضية العقل ، لأنه لا يستجيب  
لهم دعاء ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا - أكد هذا وزاد عليهم فى التشنيع ببيان أنهم  
قد عصوا الرسول الذى نبههم إلى خطأ ما فعلوا ، ثم حكى معاتبة موسى لهرون على  
سكوته على بنى إسرائيل وهو يراهم يعبدون العجل ، ثم ذكر أنه اعتذره ولكنه  
لم يقبل معذرتة ، ثم قص علينا ما قاله السامرى وما أتبه به موسى وما عاقبه الله به  
فى الدنيا والآخرة ، وما صنعه موسى بالعجل من نفسه وإلقاءه فى البحر ، ثم بين لهم

أن الإله الحق هو الذى يحيط علمه بما فى السموات والأرض لاذاك الجداد الذى لا يضر ولا ينفع ، ولا يرد جوابا ولا يسمع خطابا .

## الإيضاح

( ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به ) أى ولقد قال هرون لعبدة العجل من بنى إسرائيل ناصحا لهم من قبل رجوع موسى إليهم : يا قوم إنما اختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل الذى أحدث فيه الخوار ، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض الشاك فى دينه .

( وإن ربكم الرحمن ) أى إن خالفكم وخالق كل شىء هو الذى عمت رحمته جميع مخلوقاته ، فأتاهم ما فيه كمالهم الجسمى والروحى وما به سعادتهم فى معاشهم ومعادهم . وفى ذكر الربوبية والرحمة استمالة لهم إلى الحق إثر زجرهم عن الباطل ، وتذكير لهم بإنجائهم من فرعون وعذابه ، وتنبيه لهم إلى أنهم متى تابوا قبلت توبتهم .

( فاتبعونى وأطيعوا أمرى ) أى فاتبعونى فيما آمركم به من عبادتى وترك عبادة العجل ، وأطيعونى فى اتباع ما يبلغكم رسولى .

ثم بين أنهم لم يسمعوا نصحه ولم يطيعوا أمره .

( قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ) أى قال عبدة العجل من قوم موسى : لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يرجع موسى إلينا ، لنرى ماذا يقول وماذا يرى فى ذلك ؟ .

وما مقصدهم من ذلك إلا التعلل والتسويق وعدم إجابة طلب هرون .

ثم ذكر مقال موسى لهرون بعد أن فرغ من خطاب قومه وبيان خطأ فعلهم .

( قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ) أى قال موسى لهرون : أى شىء منعك حين رأيت ضلالهم أن تلحقنى إلى جبل الطور بمن آمن معك من بنى إسرائيل ؟ .

وقد كان موسى يرى أن مفارقة هرون لهم ، وخروجه من بينهم بعد تلك النصائح القولية يكون أضر لهم من الاقتصار على النصائح وحدها ، لما في ذلك من الدلالة على شديد الغضب والإنكار عليهم ، فإن مفارقة الرئيس المحبوب لديهم من أجل أمر مبعوض لديهم مما تشق على النفوس ، وتقتضي ترك ذلك الأمر الذي يكرهه .  
( أنقصت أُمري ) فيما قدمت إليك من قولي : « اَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ » .

فلما أقام بينهم ولم يبالغ في الإنكار عليهم نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره .  
فترفق هرون في خطاب موسى استعطافا له وترقيقا لقلبه إذ أضافه إلى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه .

( قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ) أي فامتلأ موسى غضبا مما رأى وألقى ما في يده من الألواح الإلهية وأخذ برأس أخيه يجره إليه فقال : يا ابن أمي لا تأخذ بشعر لحيتي ولا بشعر رأسي . وقد روى أن موسى أخذ شعر رأسه يمينه ولحيته بشماله ، وكان عليه السلام جديدا غضوبا لله تعالى ، وقد شاهد ما شاهد وغلب على فائه تقصير هرون عليه السلام ففعل ما فعل .

قال صاحب الكشف : كان موسى عليه السلام رجلا جديدا مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء ، شديد الغضب لله ولدينه ، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله بعد ما رأوا من الآيات العظام أن ألقى ألواح التوراة لما غاب ذهنه من الدهشة العظيمة غضبا لله واستنكافا وحمية ، وعنف بأخيه وخليقته على قومه ، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف ، قابضا على شعر رأسه ( وكان أفرع ) وعلى شعر وجهه يجره إليه .

ثم بين علة هذا النهي بأنه غير عاص أمره ولا مقصر في المصلحة ، ولكن :  
( إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ) أي إني خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا ، فتريت حتى تكون أنت المتدارك ذلك بنفسك ،

المتلافية برأيتك ، وخشيت عتابك على اطراح ما وصيتنى به ، ولم يكن بد من مراقبة ذلك والعمل على موجهه .

وخلاصة ذلك — إني رأيت من صواب رأى أن أحفظ العامة وأداريهم على وجه لا يخل به نظامهم ، ولا يكون سببا للومك حتى ترجع فتتدارك الأمر على حسب ما ترى ، ولا سيما أن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني .

وبعد أن انتهى من سماع اعتذار قومه وإسنادهم الفساد إلى السامري ومن سماع اعتذار هرون — وجه الكلام إلى السامري .

( قال ما خطبك يا سامري ) أى قال موسى للسامري : ما شأنك وما الذى دهاك حتى فعلت ذلك الأمر الجلل ؟ وقد خاطبه بهذا ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ، ويفعل به وبما أخرجه ما يكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الأمم .

( قال بصرت بما لم يبصروا به ) أى قال السامري : إني عرفت ما لم يعرفه القوم ولم تعرفه أنت ، وعرفت أن ما أتم عليه ليس بالحق .

( فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ) أى وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أى شيئا من سنتك ودينك فطرحته ، كما يقال فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره إذا كان يمثل رسمه ، ويتبع طريقته ، وأجرى الكلام على طريق الغيبة وهو يخاطبه على نهج قول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير فى كذا وبماذا يأمر الأمير؟ قاله أبو مسلم الأصفهاني ، وأيده الرازي وقال إنه أقرب إلى التحقيق .

وخلاصة هذا — إن موسى عليه السلام لما أقبل على السامري باللوم والتعنيف والسؤال عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم — رد عليه بأنه كان استن بسنته ، واقتفى أثره وتبع دينه ، ثم استبان له أن ذلك هو الضلال بعينه ، وأنه ليس من الحق فى شيء ، فطرحه وراءه ظهريا وسار على النهج الذى رأى .

وفى التعبير بكلمة ( الرسول ) على هذا نوع من التهكم والسخرية ، لأنه جاحد

مكذب له ، فهو على نحو ما حكى الله عن بعض الجاحدين بقوله : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا  
الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » وهم لا يؤمنون بالإِزال عليه .

( وكذلك سولت لى نفسى ) أى ومثل ما زينت لى نفسى أولا اتباع سنتك  
واقْتفاء أثرك زينت لى أيضا ترك ذلك بمحض الهوى لا شىء آخر من برهان عقلى  
أو نقلى أو إلهام إلهى .

والخلاصة — لم يدعى إلى ما فعلت إلا هوى النفس فحسب .  
ولما سمع موسى من السامرى ما سمع ذكر له ما سينزل به فى الدنيا والآخرة من  
العقوبات ، و بين حال إلهه ، أما حاله فى الدنيا فقد ذكره بقوله :

( قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ) أى قال له : اذهب فانت  
طريد من بين الناس ، فلا يخالطك أحد ولا تخاط أحد ، حتى لو سئلت عن حالك  
لم تقل إلا أنه لا مساس : أى لا يماسنى أحد ولا أماس أحد ، قال مقاتل : إن موسى  
عليه السلام أمره هو وأهله بالخروج من محلة بنى إسرائيل ، فخرج طريدا فى البرارى .  
روى أنه لما قال له موسى ذلك هرب فجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش ،  
ولا يجد أحدا من الناس يمسه حتى صار كمن يقول لا مساس لبعده عن الناس وبعد  
الناس عنه .

وقصارى ذلك — إنه خاف وهرب وجعل يهيم فى البرية حتى صار لبعده عن  
الناس كأنه قاتل ذلك .

وأما حاله فى الآخرة فقد ذكره بقوله :

( وإن لك موعدا لن تخلفه ) أى وإن لك موعدا فى الآخرة لن يخلفك الله ،  
بل سينجزه لك البتة بعد أن يعاقبك فى الدنيا ، وهو آت لا محيص منه .

وأما حال إلهه فقد بينه بقوله :

( وانظر إلى إهلك الذى ظلت عليه عاكفا لتحرقنه ثم لتنسفنه فى اليم نسفا )

أى وانظر إلى هذا المعبود بزعمك الذى عكفت على عبادته ، لنبردته بالمبرد ثم لنذرينه فى البحر إذا صار سُحالة كذرات الهباء .

ولقد برّ موسى فى قسمه وفعل ما أوعده به كما يدل على ذلك قوله ( وانظر إلى إلهك ) ولم يصرح بهذا تنبيها إلى وضوحه واستحالة الخلف فى وعيده المؤكد باليمين . وفى فعله ذلك به عقوبة للسامرى وإظهار لعبادة المفتونين به لمن له أدنى نظر . وبعد أن فرغ من إبطال الباطل شرع فى تحقيق الدين الحق فقال :

( إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ) أى ليس هذا بإلهكم ، وإنما المستحق للعبادة والتعظيم الله الذى لا إله إلا هو ، ولا تنبغى العبادة إلا له ، فكل شىء فقير إليه ، وهو الخالق لكل شىء .

( وسع كل شىء علما ) أى هو العالم بكل شىء وقد أحاط بكل شىء عدا ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين .

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)

### شرح المفردات

ذكرنا : أى قرأنا كما قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ » وسمى بذلك لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم ، والوزر : الحمل الثقيل ؛

والمراد به العقوبة التي تثقل على حاملها ، والصور : قرن ونحوه ينفخ فيه حين يدعى الناس إلى المحشر كما ينفخ فيه في الدنيا حين الأسفار وفي المعسكرات ، زُرُقًا : أى زرق الأبدان سود الوجوه لما هم فيه من الشدائد والأهوال ، يتخافتون بينهم : أى يخفضون أصواتهم ويخفونها لشدة ما يرون من الهول ، إلا عشرا : أى عشرة أيام ، أمثلهم طريقة : أى أعدلهم رأيا وأرجحهم عقلا .

### المعنى الجملى

بعد أن شرح قصص موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامري ثانيا على نمط بديع وأسلوب قويم - بين لنبيه صلى الله عليه وسلم أن مثل هذا القصص عن الأمم الماضية والقرون الغابرة كهاد وثمود وأصحاب الأيكة ، نلقيه إليك تسلية لقلبك ، وإذهابا لحزنك ؛ إذ به تعرف ما حدث للرسل من قبلك من شدائد الأهوال وتذكريا للمستبصرين في دينهم ، وتأكيدا للحجة على من عاند وكابر من غيرهم .

### الإيضاح

( كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ) يخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويبين له أنه كما قص عليه خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده على هذا الأسلوب الرائع والمسلك البديع - يقص عليه أخبار الحوادث التي جرت على الأمم الخالية ، ليكون له في ذلك سلوة ليتأسى بالأنبياء السابقين وما لاقوه من أمهم من شديد العناد والجحود والتكذيب ومكابدة الشدائد والأهوال .

( وقد آتيناك من لدنا ذكرا ) أى وقد أعطيناك من لدنا كتابا جديرا بالتذكير به ، لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولم يعط نبى قبلك مثله ، فهو جامع للأخبار ، حاوٍ للأحكام التي فيها صلاح حال البشر في دينهم ودنياهم ، مشتمل على مكارم الأخلاق وسامى الآداب التي بها يرتفع قدر الأمم وينبذ ذكرها .



( من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا ) أى من كذب به وأعرض عن اتباعه وابتغى الهدى من غيره ، فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم ، وسيحمل يوم القيامة من الأوزار والآثام ما لا يقدر على حمله ، بل يُنقض ظهره ، وبمعنى الآية قوله : « وَمَنْ يَكْفُرْ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْثَمَ نُورُ مَوْعِدُهُ » .

وكل من بلغه القرآن من العرب والعجم من أهل الكتاب وغيرهم فهو نذير له فمن اتبعه هدى ، ومن أعرض عنه ضل وشقى في الدنيا ، والنار موعده يوم القيامة كما قال « لَا نَذِيرَ كُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » .

( خالدين فيه ) أى مقيمين في ذلك الوزر أى في عقوبته لا يجدون عنها محيصا ولا انفكاكا .

( وساء لهم يوم القيامة حملا ) أى وبئس الحمل الذى حملوه من الأوزار والآثام جزاء إعراضهم وسائر ذنوبهم .

( يوم ينفخ فى الصور ) أى هذا اليوم هو يوم ينفخ فى الصور النفخة الثانية إيدانا بالقيام للحشر والحساب .

( ونحشر الجرمين يومئذ زرقا ) أى وفى هذا اليوم يساق الجرمون إلى الحشر شاحبي الألوان زرق الوجوه ، لما هم فيه من مكابدة الأهوال ومقاساة الشدائد التى تحل بهم .

( يتخافتون بينهم ) أى يخفضون أصواتهم ويهمس بعضهم فى أذن بعض ، لما امتلأت به قلوبهم من الرعب والذعر ، وبمعنى الآية قوله تعالى : « فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » .

( إن لبئس إلا عمرا ) أى يقول بعضهم لبعض : ما لبئس فى الدنيا إلا عشرة أيام ، ذاك أنهم لما عاينوا تلك الأهوال ذهلوا عن مقدار عمرهم فى الدنيا ، ولم يذكروا إلا القليل فقالوا ما عشنا إلا تلك الأيام القلائل .

والإنسان حين الشدائد والأهوال تغيب عنه أظهور الأشياء ، وأكثرها  
خطورا بباله .

( نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ) أى نحن أعلم  
بالذى يقولونه فى مدة لبثهم ، لاهم ، حين يقول أعدلهم رأيا وأكملهم عقلا : ما لبثتم  
إلا يوما واحدا .

ذاك أن الدنيا وإن تكررت أوقاتها ، وتعاقبت لياليها وأيامها - قصيرة المدى  
إذا قيسـت بالنظر إلى يوم القيامة . وكأن غرضهم بذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر  
الأجل ، على نحو ما جاء فى قوله : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا  
غَيْرَ سَاعَةٍ » وقوله : « قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا  
أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ » .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا  
صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ  
لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)  
يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩)  
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ  
لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ  
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) .

### شرح المفردات

ينسفها : أى يجعلها ذرات صغيرة ثم يصيرها هباء منثورا ، يذرها : أى  
يتركها ، القاع : الأرض التى لا بناء فيها ولا نبات قاله ابن الأعرابى ، والصفصف :

الأرض الملساء ، والعوج : الانخفاض ، والأمت : التتواء اليسير ؛ يقال مد حبله حتى ما فيه أمت ، والداعى : هو داعى الله إلى الخشر ، لاعوج له : أى لاعوج لدعائه فلا يميل إلى ناس دون ناس ، بل ليسمع الجميع ، خشعت : ذلت ، والهمس : الصوت الخفى ، وعنت : خضعت وانقادت ، ومن ذلك العانى : وهو الأسير ، والقيوم : القائم بتدبير أمور عباده ومجازاة كل نفس بما كسبت ، خاب : أى خسر ، والظلم الأول : الشرك . والظلم الثانى : منع الثواب عن المستحق ، والهضم : النقص .

### المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه حال يوم القيامة وما يكون فيه من الأحوال التى تجعل الجرمين يتخافتون فى حديثهم وينسون مقدار لبثهم فى الدنيا ، ويحشرون زرق الوجوه والأبدان إلى نحو أولئك مما سلف - قفى على ذلك بذكر سؤال من لم يؤمن بالخشر - عن الجبال وأحوالها فى ذلك اليوم ثم الإجابة عنه ، وضم إلى الجواب أموراً آخر تشرح شؤون هذا اليوم وأحواله ، فبين أن الأرض فى ذلك اليوم تكون مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، وأن الناس يسرعون إلى إجابة الداعى ولا يسمع لهم كلام إلا همس ، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين إلا إذا أذن لهم الرحمن ورضى للمشفوع له قولاً ، ثم ذكر أن الله هو العليم بما أصابوا من خير أو شر ، وهم لا يحيطون به علماً ، وفى ذلك اليوم تذلل الوجوه وتخضع للواحد الديان ، وقد خسر حينئذ من ظلم نفسه فأشرك مع الله غيره وعبد معه سواه وعصى أمره ونواهيه .

أما المتقون فإنهم لا يظلمون فلا يزداد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من حسناتهم . أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قریش يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة فنزلت الآية ( ويسألونك عن الجبال ) الخ . ولا شك أن سؤالهم هذا سؤال تهكم واستهزاء وطعن فى الخشر والنشر ، لاسؤال معرفة للحق وتثبيت له .

## الإيضاح

( ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا ) أى يسألك المشركون أيها الرسول عن الجبال كيف تكون يوم القيامة ؟ فقل مجيبا لهم يدكها ربي دكا ويصيرها هباء تذرؤه الرياح .

( فيذرهما قاعا صفصفا . لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ) أى فيدع أماكنها من الأرض بعد نسفها ملساء مستوية لانبات فيها ولا بناء ولا ارتفاع ولا انخفاض .  
وخلاصة هذا — لا ترى في الأرض يومئذ واديا ولا رابية ولا مكانا مرتفعا ولا منخفضا .

( يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ) أى يوم يرى الناس هذه الأهوال يتبعون صوت داعي الله الذى يجمعهم إلى موقف الحساب والجزاء ، ولا يكون لهم ميل عنه ولا انحراف ، ولكنهم سراعاً إليه يقبلون ، إذا أمروا بشيء قالوا لبيك ، ونحن بين يديك ، والأمر منك وإليك كما قال : « مُطِيعِينَ إِلَى الدَّاعِ » وقال : « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُتُونَنَا » .

( وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ) أى وعلمت الخلائق أن لا مالك لهم سواه ، ولا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس الذى لا يكاد يفهم إلا بتحريك الشفتين لضغفه ، وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ، ويضعف صوته ، ويختلط قوله ، ويطول غممه ، قاله أبو مسلم .

( يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ) أى يومئذ لا تنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع ورضى له قولا صدر منه .

والفاسق قد قال قولا يرضاه الرحمن فتمدح قال لا إله إلا الله كما روى عن ابن عباس .  
والمخلاصة — إن الشفاعة لا تكون نافعة للمشفوع له إلا بشرطين :

( ١ ) إذن الله للشافع بالشفاعة .

(٢) رضا الله عن قول صدر من المشفوع له ، ليأذن بشفاعته الشافع له .  
وقصارى ذلك — إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له  
قول يرضى .

وبمعنى الآية قوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وقوله :  
« وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ  
لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى » وقوله : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ  
مُسْفِقُونَ » وقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ  
لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » .

ولما نفى أن تنفع شفاعته بغير إذنه علل ذلك بقوله :  
( يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما ) أى يعلم ما بين أيدي عباده  
من شؤون الدنيا وما خلفهم من أمور الآخرة وهم لا يعلمون جملة ذلك ولا تفصيله .

ولما ذكر خشوع الأصوات أتبعه خضوع ذوبها فقال :  
( وعنت الوجوه للحى القيوم ) أى واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى  
لا يموت ، القائم على خلقه بتدبير شؤونهم ، وتصريف أمورهم .  
وخص الوجوه بالذكر ، لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة ، ولأن آثار الذل  
والعبطة والسرور تظهر عليها .

( وقد خاب من حمل ظلما ) أى وقد حرم الثواب من وافى الموقف وهو مشرك  
بالله كافر بأنبيائه أو تارك لأوامره منغمس فى معاصيه .

وبعد أن ذكر أهوال يوم القيامة بين حال المؤمنين حينئذ فقال :  
( ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما ) أى ومن  
يعمل صالح الأعمال على قدر طاقته وهو مؤمن بربه ورسله وما أنزله عليهم من كتبه  
فلا يخاف من الله ظلما بأن يحمل عليه سيئات غيره وأوزاره ، ولا يخاف أن يهضمه  
حسناته فينقصه ثوابها ، ونحو الآية قوله : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

وخلاصة ذلك — إنه لا يؤاخذ العبد بذنب لم يعمله ، ولا يبطل له حسنة قد عملها .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ  
أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ  
مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) .

### شرح المفردات

صَرَّفْنَا : كررنا وفصلنا ، ذكرنا : أى عظة وعبرة ، فتعالى الله أى تنزه وتقدس  
الحق : أى الثابت فى ذاته وصفاته ، يقضى إليك وحيه : أى يتم جبريل تبليغه لك .

### المعنى الجملى

ذكر سبحانه أنه كما أنزل الآيات المشتملة على الوعيد المنبهة بما سيحدث من  
أحوال القيامة وأهوالها — أنزل القرآن كله كذلك على نخط واحد قرآنا عربيا ليفهمه  
العرب ويقفوا على ما فيه من النظم البديع ، والأسلوب العجيب الخارج عن طوق  
البشر ، ثم بين عز اسمه نفع هذا القرآن لعباده ، وأنه سبحانه موصوف بصفات  
الكمال منزّه عن صفات النقص ، وأنه يصون رسوله عن السهو والنسيان  
فى أمر الوحى .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه  
السلام فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل إياه مخافة النسيان ، فنهى عن ذلك وقيل  
له : لا تعجل به إلى أن يستتم وحيه فيكون أخذك إياه عن تثبت وسكون ، والله  
يزيدك فهما وعلمها .

## الإيضاح

(وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا) أى ومثل إنزال ما ذكر من الوعد والوعيد وبيان أحوال يوم القيامة وأهوالها - أنزلنا القرآن كله بأسلوب عربى مبين ، ليتفهمه العرب الذين نزل عليهم ويتفقهوا بدراسته ، ويسعدوا بالعمل بما حواه مما فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم .

(وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا) أى وخوفناهم فيه بضروب من الوعيد كي يحتنبوا الشرك والوقوع فى المعاصى والآثام ، أو يحدث لهم عظة تدعوهم إلى فعل الطاعات .

وخلاصة ذلك - إنهم بدراستهم إما أن يصلوا إلى مرتبة هى ترك المعاصى والوقوع فى الآثام ، وإما أن يرتقوا إلى مرتبة هى فوق ذلك ، وهى أن يفعلوا الطاعات ويؤدوا الفرائض والواجبات .

وبعد أن عظم الله كتابه أردفه بتعظيم نفسه فقال :

(فتعالى الله الملك الحق) أى تقدس الله المتصرف بالأمر والنهى الحقيق بأن رجبى وعده ويخشى وعيده ، وهو الثابت الذى لا يزول ولا يتغير - من ألا يكون إنزال القرآن على من أنزل عليهم مؤديا إلى الغاية التى أنزل لأجلها وهى تركهم للمعاصى وفعلهم للطاعات .

ولا يخفى ما فى هذا من طلب الإقبال على دراسة القرآن وبيان أن قوارعه وزواجه سياسات إلهية فيها صلاح الدارين لا يحيد عنها إلا من خذله الله ، وأن ماتضمنه من الوعد والوعيد حق كله لا يحوم الباطل حول حماه ، وأن الحق من أقبل عليه بشرائره ، والمبطل من أعرض عن تدبر زواجه .

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه) أى ولا تعجل بقراءته فى نفسك من قبل أن يتم جبريل تبليغه لك ، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا ألقى

عليه جبريل القرآن يتبعه حين يتلفظ بكل حرف وكل كلمة خوفاً أن يصدر عليه السلام ولم يحفظه ، فنهى عن ذلك ، إذ ربما يشغله التلفظ بالكلمة عن سماع ما بعدها . وفي هذا أنزل قوله تعالى : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » .

وخلاصة ذلك — أنصت حين نزول الوحي بالقرآن عليك ، حتى إذا فرغ الملك من قراءته ، أقرأه بعده .

(وقل رب زدني علماً) أى سل الله زيادة في العلم دون استعجال بتلاوة الوحي فإن ما أوحى إليك يبقى للاحالة ، روى الترمذى عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني ، وزدني علماً ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار » وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم زدني إيماناً وفقهاً ، وبقيناً وعلماً .

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَى وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ أَخْلَدُ وَمُلْكٍ لَا يَبْئَلُ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣)



وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ  
كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٦) وَكَذَلِكَ  
نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ  
وَأَبْقَى (١٢٧) .

### شرح المفردات

العهد : الوصية يقال عهد إليه الملك بكذا وتقدم إليه بكذا: إذا أمره وأوصاه به ،  
من قبل: أى من قبل وجود هؤلاء الخالفين، قنسى: أى فترك ، ولم نجعله : أى لم نعلم ،  
والعزم على الشيء : تصميم الرأى والثبات عليه ، أبى : أى امتنع ، فتشقى : أى تتعب  
بمتاعب الدنيا وهى لا تكاد تحصى ، تظلمأ : تعطش ، تضحى : أى تصيبك الشمس  
يقال ضحا كسعى وضحى كرضى : إذا أصابته الشمس بحرها اللافح ، شجرة الخلد : أى  
الشجرة التى إذا أكل منها الإنسان خلد ولم يمت ، لا يبلى : أى لا يفنى ، طفقا يخصفان  
أى شرعا يلزقان ورق الثين على سوءاتهما لسترها ، غوى : أى ضل عن الرشد حيث  
اغتر بقول عدوه ، واجتباه : اصطفاه وقربه إليه ، وهدى : أى إلى الثبات على التوبة  
عن ذكرى : أى عن الهداية بكتبي السماوية ، والضنك : الضيق الشديد ، أعمى :  
أى عن النظر فى الحجب والبراهين الإلهية ، عن آياتنا : أى عن أدلتنا ، فنسيتهما :  
أى فتركتهما ، وتنسى : أى تترك ، أسرف : أى انهمك فى الشهوات واسترسل فيها .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه صرف الوعيد فى القرآن وكرره لعلهم يتقون أو يحدث  
لهم ذكرا - قفى على هذا ببيان أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك ونسوه كما لم يلتفت أبوه آدم

إلى الوعيد ونسى العهد ، فخالقهم قديعة وعرقهم فيها راسخ . ثم فصل عهده لآدم وبين كيف نسيه وفقد العزم ، ثم ذكر عصيان إبليس للسجود لآدم وتحذيره من الخروج من الجنة إذا هو اتبع نصائحه ، وهو بعد كل هذا قد أطاع وسأوسه وقبِل إرشاده ، فأكل من الشجرة التي نهى عن الأكل منها ، فأخرج من الجنة مع إعلامه بأن الشيطان عدوه ولذريته ، ثم بين أن من جاءه الهدى من ربه واتبعه عاش في الدنيا قرير العين هادئ البال ، ويؤتى في الآخرة ما شاء الله أن يؤتى من ألوان النعيم والسعادة ، ومن أعرض عن ذلك عاش في الدنيا عيشة ضنكا ، إذ هو لشدة حرصه عليها يخاف انتقاصها ، ومن ثم يغلب عليه الشح والبخل ويفعل كل منكر في سبيل جمع المال من أى وجه كان ولا يبالي أمن حلال كان أم من حرام ، ولذلك تراهم يقولون ( الغاية تهرئ الواسطة ) . أما المؤمن الذى لا يعنيه جمع حطام الدنيا فإنه في سرور وراحة قلّ ماله أو أكثر .

وهو في الآخرة يكون أعمى عن الحجة التى تنقذه من ذلك الخزي الدائم والعذاب المقيم .

ثم أردف هذا ببيان سبب ذلك وهو إعراضه في الدنيا عن الآيات البينات التى تهديه إلى سبيل الرشاد ، ومن ثم يسير في جهالته إلى يوم القيامة ، وهذا مما يوجب له أشد الآلام الروحية من حين مماته إلى حين الحشر ، وهكذا يجازى الله المفسرين المكذبين بآياته في الدنيا والآخرة جزاء وفاقا لما اجترحوا من السيئات ، وارتكبوا من الذنوب والآثام كما قال سبحانه : « لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ » .

### الإيضاح

( ولقد عهدنا إلى آدم من قبل قنسى ولم نجد له عزيمة ) أى ولقد وصينا آدم وقلنا له إن إبليس عدوك ولزوجك فلا تخرجنك من الجنة ، فوسوس إليه الشيطان فأطاعه

وخالف أمرى وترك العهد الذى أمرته به ولم يهتم بالعمل به ، ولم نجد له ثباتاً فى رأى ولا تصميماً فى العزيمة .

وخلاصة ذلك — إنه ترك ما وُصِّى به من الاحتراس من الأكل من الشجرة . ثم بين سبحانه المعهود به وكيفية نسيانه وفقدان عزمه فقال :

( وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ) أى واذكر أيها الرسول الكريم ما وقع فى ذلك الحين منا ومن آدم حتى يستبين لك نسيانه وفقدان عزمه ، إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فلبوا الأمر إلا إبليس فإنه امتنع وأبى أن يكون مع الساجدين .

وقد تقدم هذا القصص فى سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف ، وسيأتى ذكره فى سورة ص ؛ وفيه إشارة إلى تكريم آدم وتشريفه وتفضيله على كثير ممن خلق .

( فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ) أى فقلنا له عقب ذلك رعاية لإرشاده ونصحه : إن هذا الذى رأيت منه ما رأيت — عدو لك ولزوجك ، ومن ثم لم يسجد لك وخالف أمرى وعصانى ، فلا تطيعاه فيما يأمركما به .  
( فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ) أى فلا يكون سبباً لإخراجكما من الجنة ، فتتعبا بمتاعب الدنيا التى لا تكاد تحصى .

وخلاصة ذلك — إياك أن تسعى فى إخراجك منها فتتعب وتشقى فى طلب رزقك ، وأنت هاهنا فى عيش رغيد هنىء بلا كلفة ولا مشقة . ثم علل ما يوجب النهى عن ذلك فقال :

( إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى ) أى لا يكون لك فى الجنة جوع ولا عرى ، ولا ظمأ ولا إصابة بحر الشمس .

وقرن بين الجوع والعرى أولاً ، لأن فى الجوع ذل الباطن وفى العرى ذل الظاهر ، وبين حر الباطن وهو العطش وحر الظاهر وهو الضحى ثانياً .

وخلاصة ذلك - إن الجنة اجتمعت فيها الأسباب التي توجب راحة الإنسان، وذلك مما يوجب الاهتمام بتحصيل الوسائل التي توجب البقاء فيها ، والابتعاد عما يدعو إلى الخروج منها .

وقصارى ذلك - إن لك فيها تمتعا بأنواع المعاش وتنعم بأصناف النعم من المأكول الشهية ، والملابس البهية .

وبعد أن بين أنه عظم آدم وعرفه شدة عداوة إبليس له - بين أنه قبل نصحه وأكل من الشجرة التي نهى عن الأكل منها فقال :

( فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ )  
أى فألقى الشيطان النصيحة إلى آدم وقال له : هل أدلك على شجرة إن أكلت منها خلدت ولم تمت وملكك ملكا لا ينقضى ولا يفنى .

( فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخضفان عليهما من ورق الجنة ) أى فأكل آدم وحواء من الشجرة التي نهى عن الأكل منها وأطاعا أمر إبليس وخالفا أمر ربهما ، فأنكشفت عورتهم وكانت مستورة عن أعينهما ، فشرعا يلزقان ورق البين عليهما ليغطيا جسمهما .

( وعصى آدم ربه فغوى ) أى وخالف أمر ربه ، وتعدى ما لم يكن له أن يتعدى إليه من الأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها .

( ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ) أى ثم اصطفاه ربه من بعد معصيته ورزقه التوبة والعمل بما يرضيه حين قال هو وزوجه : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

( قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ) أى قال الرب الذى انتهكت حرمة داره وخولف أمره . إنزلا من الجنة إلى الأرض ، أتما عدو لإبليس وذريته ، وإبليس عدوكا وعدو ذريتكما .

( فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ) أى فإن يأتكم

يا آدم وحواء وذريتهما بيان لسببى وما اختاره لخلقى من دين يارسال الرسل والكتب  
فمن اتبع ذلك وعمل به ولم يزغ عنه فإني أهديه في الدنيا وأرشدّه إلى محجة الصواب  
ولا يشقى في الآخرة .

أخرج ابن أبي شيبة والحاكم والبيهقي عن ابن عباس قال : « أجاز الله تابع القرآن  
من أن يضل في الدنيا أو يشقى في الآخرة ، ثم قرأ الآية » ، وروى عنه مرفوعا إلى النبي  
صلى الله عليه وسلم « من اتبع كتاب الله هداه الله تعالى من الضلالة في الدنيا ووقاه  
سوء الحساب يوم القيامة » .

( ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ) أى ومن أعرض عن ذكرى  
الذى أذكّره به وتولى عنه ولم يتعظ به فينزع عما هو مقيم عليه من مخالفة أمر ربه ،  
فإن له معيشة ضيقة شديدة لما يكون فيه من القلق والحرص على الدنيا والتهالك على  
ازديادها والخوف من انتقاصها ، فترى الشح غالبا عليه ، والبخل راسخا في أعراقه .  
( ونحشره يوم القيامة أعمى ) عن الجنة ، لأن الجهالة التي كانت له في الدنيا تبقى  
كذلك في الآخرة ، وهذا يصير سببا لأعظم الآلام الروحية له .

وقضارى ذلك — إن الله عز اسمه جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه العيش  
الهنئ الذى لا هم فيه ولا غم ، وجعل لمن أعرض عن دينه التعب والنصب ، وهو  
في الآخرة أشدّ تعباً وأعظم ضيقاً وأكثر ألماً .

( قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ؟ ) أى قال رب لم حشرتني  
أعمى عن حجتى وعن رؤية الأشياء على حقيقتها ، وقد كنت في الدنيا ذا بصر  
بذلك كله ؟ ، ونحو الآية قوله : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا  
وَبُكْمًا وَصُمًّا » .

( قال ) ربه مجيبا هذا السائل :

( كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ) أى فكما تركت آياتنا ترك  
المنسى الذى لا يذكر أصلا وأعرضت عنها - اليوم ننساك فنتركك في النار .

( وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ) أى وهكذا نعاقب من أسرف فعصى ربه ولم يؤمن برسله وكتبه ، فنجعل له معيشة ضنكا .  
 أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال فى الآية : يقول كل مال أعطيته عبدا من عبادى قل أو أكثر لا يتقنى فيه فلا خير فيه وهو الضنك فى المعيشة ، وعن عكرمة ومالك بن دينار نحوه ، وقيل إن تلك المعيشة له فى القبر بأن يعذب فيه ، وقد روى ذلك عن جماعة منهم ابن مسعود وأبو سعيد الخدرى ومجاهد ، وروى ذلك مرفوعا أيضا فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن حبان وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له قبره سبعين ذراعا ويضئ حتى يكون كالقمر ليلة البدر ، وهل تدرون فىم أنزلت (فإن له معيشة ضنكا) ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تينا ، هل تدرون ما التين ؟ تسعة وتسعون حية ، لكل حية سبعة زعوس يخذشونه ويلسعونه وينفخون فى جسمه إلى يوم يبعثون » .  
 وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : المعيشة الضنك فى النار شوك وزقوم وغسلين وضريع وليس فى القبر ولا فى الدنيا معيشة ، وما المعيشة والحياة إلا فى الآخرة .  
 (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ) أى ولعذاب الآخرة فى النار أشد مما نعذبهم به فى الدنيا وأكثر بقاء ، لأنه لا أمد له ولا نهاية .

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سُبْحَتِ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا

مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١)  
وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ  
لِلتَّقْوَى (١٣٢) .

### شرح المفردات

أفلم يهد لهم : أى أفلم يبين لهم العبر ، لأولى النهى : أى لذوى العقول الراجحة  
لزامًا : أى لازما لهم لا يتأخرو عنهم ، فسبح بحمد ربك : أى اشتغل بتنزيه الله وتعظيمه  
آناء الليل : ساعاته واحدها إنى وإنو (بكسر الهمزة وسكون النون) ولا تمدن عينيك :  
أى لا تطيلن النظر رغبة واستحسانا ، متعنا : أى جعلناهم يتلذذون بما يدركون من  
المنظر الحسنة ويسمعون من الأصوات المطربة ويشمون من الروائح الطيبة ، أزواجا :  
أى أشكالا وأشباها ، زهرة الحياة الدنيا : أى زينتها وبهجتها ، لنفتنهم : أى  
لنبتليهم ونختبرهم ، ورزق ربك : أى ما ادخره لك ، واصطبر عليها : أى دم عليها .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال من أعرض عن ذكر الله فى الآخرة بقوله : ونحشره  
يوم القيامة أعمى - أتبعه بما يكون عبرة للمشركين لو تفكروا فيه ، وهو ما نزل  
بالمكذبين بالرسول ممن قبلهم من الأمم الذين يمرون بديارهم بكرة وعشيا كقوم عاد  
وثمود ، وكيف أصبحت ديارهم خرابا بلقعا ليس فيها ديار ولا نافخ نار ، ثم بين أنه  
لولا سبق الكلمة بتأخير عذابهم إلى أجل مسخى لحاق بهم مثل ما جاق بمن قبلهم ،  
ثم أمر رسوله بالصبر على ما يسمونه به من نحو قولهم : إنه ساحر ، وإنه شاعر ، وإنه  
مجنون وعدم المبالاة بمقاتلتهم ، وعليه أن يكثروا من التسبيح وعبادة ربه آناء الليل  
وأطراف النهار ولا يلتفت إلى شىء مما متع به الكفار من زهرة الدنيا التى أوتيت

لهم لتكون ابتلاء واختبارا ، وما عند الله خير منها وأبقى ، ثم طلب إليه أن يأمر أهله بالصلاة ويصطبر عليها ، وهو لا يكلفه رزقا لنفسه ولا لغيره ، فالله يرزقه من واسع فضله وعظيم عطائه ، والعاقبة لمن اتقى : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

### الإيضاح

( أفلم يهد لهم كم أهل كنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ؟ ) أى أفلم يرشدهم إلى وجه العبر ، إهلا كنا كثيرا من الأمم الماضية والقرون الغابرة التى يمزون عليها نصبحين وبالليل كعاد وعمود الذين يشاهدون آثارهم العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعيم ثم ما حل بهم من صنوف البلاء ، فيتعظوا ويعتبروا ويؤمنوا بالله ورسوله خوف أن يصيبهم بكفرهم مثل ما أصاب هؤلاء السابقين .  
وللمشاهدة من العبرة ما ليس لغيرها فقد قالوا « ليس الخَيْرُ كالتَّخِيرِ » وقالوا :  
« ما راء كمن سمع » .

وخلاصة ذلك — إن فى مشاهدة ما حصل للأمم الماضية ، ورؤية آثارها البائدة التى يمزون عليها فى رحلاتهم فى الصيف لعبرة وزاجرا لهم لو كانوا يعتقدون .  
ثم علل هذا الزجر والإنكار بقوله :

( إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ) أى إن فيما يعاين هؤلاء ويرون من آثار وقائعنا بالأمم المكذبة لرسالتنا وحلول المثلث بهم لكفرهم بربهم - لعبرا وعظات لأرباب الحجا الذين ينهائم دينهم ويؤمنهم عقولهم من مواجهة ما يضرهم .  
ولما هدد المشركين بالهلاك كهلاك الكاذبين من الماضين ، ذكر سبب تأخير ذلك عنهم فقال :

( ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى ) أى ولولا الكلمة النافذة التى سبقت منا فى الأول ، وهى أن أمة محمد - وإن كذبوا - سيؤخر عذابهم



ولا يفعل بهم ما فعل بغيرهم من عذاب الاستئصال ، كما قال : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ »  
بعجل لهم العذاب كفاء ما قاموا به من تكذيب الرسول وإيذائه .

وقد جعل العلماء من الحكمة في تأخير العذاب أنه ربما تاب بعضهم أو خرج  
من أصلاب بعضهم من يؤمن ، فيكون في ذلك إكرام للنبي ، ورحمة لأمته ،  
وتكثير لسواد أتباعه ، وإلى ذلك أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : « وإنما كان الذي  
أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » .

وبعد أن أخبر سبحانه بأنه لا يهلك أحداً قبل استيفاء أجله - أمره بالصبر على  
ما يقولون فقال :

( فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها  
ومن آتاء الليل فسيح وأطراف النهار ) أى واصبر أيها الرسول على ما يقول هؤلاء  
المكذبون بآيات الله من نحو قولهم : إنك لساحر ، وإنك لمجنون ، وإنك لشاعر ،  
واشتغل بتنزيه الله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وفي ساعات الليل المختلفة  
وفي أطراف النهار ، والمراد من مثل ذلك عموم الأوقات ، وفي صحيح مسلم سمعت  
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يليح النار أحد صلى قبل طلوع الشمس  
وقبل غروبها » .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لاتضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا  
تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا وقرأ هذه الآية » .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى يا بن  
آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا  
ولم أسد فقرك » .

وعن زيد بن ثابت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كانت

الدنيا همه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له .

( لعلك ترضى ) أى سبحه رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك من الثواب .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ فيقول إني أعطيتكم أفضل من ذلك ، فيقولون وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .

ولما صبر رسوله على ما يقولون وأمره بالتسبيح - أتبع ذلك بنبيه عن مد عينيه إلى ما تمتعوا به من زينة الدنيا فقال :

( ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ) أى ولا تطل النظر استحسانا ورغبة فيما متع به هؤلاء المترفون من النعيم ، فإنما هو زهرة زائلة ، ونعمة حائلة ، نخبرهم بها ، ونعلم هل يؤدرون شكرها أو تكون وبالاً عليهم ونكالا لهم ، وقد آتاك ربك خيرا مما آتاهم ، فرضا خيرا وأبقى كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمُنَافِقِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » .

وخلاصة هذا - التنفير من الانهماك فى التمتع بزهرة الدنيا لسوء عاقبتها .

روى أبو رافع « أنه نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فأرسلنى إلى يهودى بالمدينة يستسلفه ، فأتيته فقال : لا أسلفه إلا برهن ، فأخبرته بذلك فقال : إني لأمين فى أهل السماء وفى أهل الأرض ، فاحل درعى إليه ، فنزل ( ولا تمدن عينيك ) الآية » .

وبعد أن أمر الله نبيه بتزكية النفس أمره أن يأمر أهله بالصلاة فقال :

( وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى )

أى وأمر أهلك أيها الرسول بالصلاة وحافظ أنت عليها فعلاً ، فإن الوعظ بالفعل أشد أثراً منه بالقول كما قال :

يأيها الرجل المعلم غيره هلاً لنفسك كان ذا التعليم  
وإنا إنما نريد منك ومنهم العبادة والتقوى ، ولا نطلب منك رزقاً كما تطلب  
السادة من عبيدهم الخراج - والعاقبة الجميلة لمن اتقى الله وأطاعه ، فإن ما عندهم ينقطع ،  
وما عند الله دائم لا يفنى كما قال : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » .  
والخلاصة — دأوم على الصلاة ، لا تكلفك مالاً ، بل تكلفك عملاً تؤتيك عليه  
أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً ، ونحن نعطيك المال ونكسبكم ولا نسألكم ، والعاقبة  
الصالحة لأهل الخشية والتقوى لا لمن لا يخاف له عقاباً ولا يرجو ثواباً كما قال : « وَمَنْ  
يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » وقال : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ  
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

عن أبي رافع قال : « نزل ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن عنده  
ما يصلحه فأرسلنى إلى رجل من اليهود أن بعنا أو أسلفنا دقيقاً إلى هلال رجب ،  
فقال لا إلا برهن فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال أما والله إنى لأمين  
فى السماء أمين فى الأرض ، ولئن أسلفنى أو باعنى لأدبت إليه ، اذهب بدرعى الحديد ،  
فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية كأنه يعزىه عن الدنيا » أخرجه البزار  
وأبو يعلى وابن أبى شيبه فى جماعة آخرين .

وأخرج ابن المنذر والطبرانى وأبو نعيم فى الحلية عن عبد الله بن سلام قال : كان  
النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة وتلا : وأمر  
أهلك بالصلاة .

وأخرج مالك والبيهقى عن أسلم قال : كان عمر بن الخطاب يصلى من الليل

ما شاء الله تعالى أن يصلي حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ويقول لهم :  
الصلاة الصلاة ویتلو هذه الآية .

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مِمَّا فِي الصُّحُفِ  
الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا  
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُحْزَى (١٣٤)  
قُلْ كُلٌّ مِمَّنْ بَصُفْتُمْ فَتَرَبَّصُوا فَمَنْ لَمْ يَحْضَرْكُمْ فَاسْتَأْذِنُوا مِنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَفِي  
أَهْتَدَى (١٣٥) .

### شرح المفردات

لولا : أى هلا ؛ وهى كلمة تفيد الحث على حدوث ما بعدها ، آية : أى معجزة  
تدل على صدقه ، البينة : القرآن ، والصحف الأولى : التوراة والإنجيل وسائر  
الكتب السماوية ، نذل : أى نهان ، ونحزى : أى نفتضح ، متربص : أى منتظر ،  
الصراط : الطريق ، والسوى : أى المستقيم .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه رسوله بالصبر على أقوالهم التى أرادوا بها تكذيبه والكيد  
له وشديد الأذى به - حكى بعض تلك الأثاويل الباطلة ، ومنها ادعائهم أن القرآن  
ليس بحجة ولا معجزة تدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أبان لهم أنهم يوم  
القيامة سيعترفون بأنه آية بينة ، فلو أننا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا  
أرسلت إلينا رسولا ، ومن ثم لم نهلكهم قبله حتى تنقطع معذرتهم كما حكى الله عنهم  
من قوله : « قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ » .

ثم ختم السورة بضرب من الوعيد فقال : قل لهم كل منا ومنكم منتظر لما يقول إليه أمرنا وأمركم ، وحينئذ يتميز الحق من المباطل بما يظهر على الأول من أنواع الكرامة والتعظيم ، وعلى الثاني من ضروب الخزي والإهانة ، ويظهر من مناسبات على الطريق السوى ومن المهتدى ؟ .

### الإيضاح

( وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ) أى وقال المشركون : هلا يأتينا بمعجزة تدل على صدقه فى دعوى النبوة كما أتى صالح قومه بالناقة وموسى بالعصا وعيسى بإحياء الموتى وإبراء الأكمه ، وهم بذلك قد باغوا فى العناد والمكابرة شأوا بعيدا ، أفلا يعدون ما شاهدوه من المعجزات التى تغر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى يجترؤا على التفتوه بهذه الكلمة الشنعاء ؟ .

ونحو الآية قوله فى سورة العنكبوت : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » وقوله : « فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ » .

( أولم تأتئهم بينة مافى الصحف الأولى ؟ ) أى ألم يأتهم القرآن وهو أم الآيات وأنفع المعجزات ، فالعلم هو أجل الأمور وأعلاها ، وهو مبدأ الأمور ومنتهاها ، فيه تدال السعادة الأبديّة ، فأى معجزة تطلب بعده ، وهو الذى جمع مافيه مصلحة البشر وصلاح المجتمع فى معاشه ومعهاده ، وهو الشاهد على حقيقة مافى الكتب قبله وما جاء فيها من العقائد وأصول الأحكام التى اتفقت عليها الرسل كافة .

وخلاصة ذلك — أليس قد جاءهم القرآن وهو البينة والشاهد على صحة مافى الكتب الأولى ، وكفى بذلك آية ، ولا حاجة للرسول بعدها إلى آية .

ثم بين أن المشركين يوم القيامة يعترفون بأن القرآن آية بينة ، فقال :  
 ( ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع  
 آياتك من قبل أن نذل ونخزى ) أى ولو أنا أهلكناهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال  
 من قبل إتيان البينة وهى القرآن لقالوا يوم القيامة : ربنا هلا أرسلت إلينا فى الدنيا  
 رسولا معه الآيات الدالة على صدقه ، فنتبع حججك وما تنزله عليه من أمرك ونهيك  
 من قبل أن نذل بتعذيبك ونفتضح به .

وإخلاصة — إنا لو أهلكناه هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول  
 الكريم ، ونزل عليهم الكتاب العظيم — لقالوا: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا قبل  
 أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه ، لكننا لم نهلكهم قبله فانقطعت معذرتهم .

( قل كل متر بص فتر بصوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى )  
 أى قل أيها الرسول الكريم هؤلاء المشركين بالله : كلنا منتظر لمن يكون الفلاح ؟  
 وإلام يئول أمرى وأمركم ؟ فتر بصوا وارقبوا ، فستعلمون من أهل الطريق المستقيم  
 الذى لا اعوجاج فيه إذا جاء أمر الله وقامت القيامة ؟ أم نحن أم أتم ؟ وستعلمون من  
 المهتدى الذى هو على سنن الطريق القاصد ؟ .

ونحو الآية قوله : « وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ؟ »  
 وقوله : « سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكَذَّابُ الْأَشِرُّ » .

وغير خاف مافى بدء السورة وخاتمها من المناسبة ، فإنها بدئت ببيان أن القرآن  
 قد أنزل لتحمل تعب الإبل ، وحيث قد بلغت فلا عليك ، وختمت بطلب الإقبال  
 على طاعة الله قدر الطاقة وأمر أهله بالصلاة وترك الذين لا ينجع فيهم الإنذار ، فإنه  
 تذكرة لمن يخشى ، وسيندم المخالف حيث لا ينفع الندم .

## خلاصة لما تضمنته السورة الكريمة

(١) إن القرآن أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم تذكرة لمن يخشى ، أنزله من خالق الأرض والسموات العلى .

(٢) قصص موسى عليه السلام وتكليمه ربه في الطور ، وحديث العصا واليد البيضاء من غير سوء ، وطلبه من ربه أن يجعل له أخاه هرون وزيراً وإجابة سؤاله في ذلك ، وامتنانه عليه بما حدث له حين وضع في التابوت وألقى في اليم وقصّ أخته ورجوعه إلى أمه ، ثم طلب ربه منه أن يبلغ فرعون دعوته وينصح له في قبول دينه وإقامة شعائره ، وإجابة فرعون له بأنه ساحر كذاب ، وأنه سيجمع له السحرة ثم إيمان السحرة به فتوعدهم فرعون بالعذاب فلم يأبهوا له ، واستمر فرعون في غيه حتى أوحى الله إلى موسى أن يخرج من مصر فأتبعه هو وجنوده فأغرقوا .

(٣) حديث السامري وإضلاله بنى إسرائيل باتخاذهم عجلاً جسداً له خوار حين كان موسى بالطور ، وحين رجع ورأى ذلك هاله الأمر وغضب من أخيه هرون وأخذ يحجره من رأسه ، ثم إغلاظه القول للسامري ودعوته عليه بأنه يعيش طريداً في الحياة وسيعذبه الله في الآخرة أشد العذاب ، ثم نسف إلهه وإقاؤه في اليم .

(٤) بيان أن من أعرض عن القرآن فإنه سيلقى الجزاء والوبال يوم القيامة .

(٥) ذكر أوصاف المجرمين حينئذ ، وأنهم يختلفون في مدة لبسهم في الدنيا .

(٦) سؤال المشركين عن حال الجبال يوم القيامة ، وأن الأصوات حينئذ تخشع للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، وأن الوجوه تخضع لربها القائم بأمرها .

(٧) وصف القرآن الكريم بأنه عربى مبين أنزل تذكرة للناس ، وأن الله سيعصم رسوله من نسيانه ، فلا ينبغي أن يعجل بتلاوته قبل أن يتم تبليغ جبريل له .

(٨) قصص آدم عليه السلام مع إبليس ، وترك آدم للعهد الذى وصاه به ربه ، وقبول نصيحة إبليس مما كان سبباً في إخراجه من الجنة .

(٩) بيان أن من أعرض عن ذكر ربه عاش في الدنيا عيشة ضنكا وعى في الآخرة عن الحجة التي تنقذه من العذاب ، لأنه قد كان في الدنيا أعمى عنها تاركا لها فتركه ربه من إنعامه .

(١٠) بيان أن في المثلاث التي سلفت للأمم قبلهم ممن يمرون على ديارهم مضطحين وبالليل كعاد وثمود - ما كان ينبغي أن يكون رادعا لهم وزاجرا لتدبروا وعقلوا .

(١١) إن كلمة الله قد سبقت بأنه سيؤخر عذاب المشركين إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة .

(١٢) طلبه من رسوله تنزيهه والثناء عليه أثناء الليل وأطراف النهار رجاء أن يعطيه ما يرضيه .

(١٣) أمر رسوله أن يأمر أهله بالصلاة ويصطبر هو عليها وهي لا تكون شاغلا لهم عن الرزق .

(١٤) طلب المشركين من الرسول أن يأتيهم بآية من نوع ما أوفى الرسل الأولون .

(١٥) إن إنزال القرآن على رسوله ليزيح العلة ويمنع المexcuse يوم القيامة ، فلا يقولون : لولا أرسلنا رسولا وأتيتنا بكتاب نتبعه .

(١٦) وعيد المشركين بأنهم يتربصون ، وسيعلمون يوم القيامة لمن يكون حسن العاقبة ؟

ربنا إنك رؤوف بعبادك رحيم بهم ، ربنا اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وصل ربنا على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

تمت مسودة هذا الجزء في صبيحة اليوم الرابع والعشرين من شوال سنة ثلاث وستين وثلاثمائة وألف بعد الهجرة بمدينة حلوان من أرباض القاهرة .



## فهرست

### أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٤	فى الحديث رحمة الله علينا وعلى موسى .
٧	إذا تعارض ضرران وجب تحمل الأدنى .
٨	لا يقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيرا له .
٩	لذكر قصص الخضر فى القرآن فوائد .
١٣	يأجوج ومأجوج .
١٥	سد ذى القرنين .
١٩	سبب خروج جنكيزخان .
٢٢	فى الحديث كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم قرنه .
٢٦	ما أثبتته العلم الحديث فى عمر الأرض .
٢٨	الشمس أكبر من الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة .
٣٤	دعاء ذكرى ربه .
٣٥	إجابة الله دعاءه .
٣٧	علامة إجابة الدعاء .
٣٩	ما وصف الله به يحيى .
٤٢	الاستمادة لا تؤثر إلا فى التقي .
٤٥	السعى فى الرزق لا ينافى التوكل .
٤٧	من هرون الذى نسبت إليه مريم ؟
٤٨	ما وصف به عيسى نفسه .

الصفحة	المبحث
٤٩	اليهود والنصارى ينكرون تكلم عيسى فى المهد .
٥٢	قوة سمع الكفار وحدة أبصارهم يوم القيامة .
٥٥	الحوار الذى دار بين إبراهيم وأبيه آزر .
٥٩	قد اجتمعت لإبراهيم خلال لم تجتمع لغيره .
٦١	قصص إسماعيل .
٦٣	قصص إدريس - ما وصفه الله به .
٦٥	ما جازى به سبحانه أولئك الأنبياء .
٦٨	الثائب من الذنب كمن لا ذنب له .
٦٨	أوصاف الجنة .
٧٠	احتبس جبريل عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وسلم أياما .
٧١	لا تنزل الملائكة بالوحى إلا بأمر الله .
٧٣	جميع الخلائق ترد على النار .
٧٤	تهديد منكرى البعث .
٧٥	ينجى الله المتقين ويترك الكافرين جاثين على الركب .
٧٨	سنة الله أن يستدرج أهل الضلال ليزدادوا إثما .
٧٩	الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا .
٨٠	قال الكافر لأعطين ما لا وولدا يوم القيامة .
٨٢	اتخذ المشركون آلهة يعبدونها ويحفلونهم شفعاء عند ربهم .
٨٣	الشياطين يغرون الكافرين بالمعاصى .
٨٤	يحشر المتقون ركباناً والكافرون مشاة .
٨٦	قال الكافرون اتخذ الرحمن ولدا .
٨٧	يأتى المرء يوم القيامة وحيدا منفردا عن الأهل والإخوان .
٨٨	فى الحديث اللهم اجعل لى عهدا واجعل لى فى صدور المؤمنين ودا .

الصفحة	المبحث
٩٤	أصح الآراء فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور .
٩٥	القرآن تذكرة لمن يخشى الله .
٩٨	ما حدث لموسى وهو عائد إلى مصر .
١٠٠	أمر موسى بإقامة الصلاة .
١٠٢	صفات العصا .
١٠٤	اليد البيضاء .
١٠٥	أمر موسى بدعوة فرعون إلى التوحيد .
١٠٦	ما طلبه موسى من ربه .
١٠٧	اختص هرون بأمر .
١٠٩	منن الله على موسى وهرون .
١١٣	تبليغ موسى وهرون الرسالة إلى فرعون .
١١٩	الدلائل التى أتى بها موسى لفرعون .
١٢٠	العناد الذى أظهره فرعون بعد أن أظهر له موسى الأدلة .
١٢٢	ما أعده فرعون ليوم الزينة .
١٢٥	خلاصة ما استقر رأى السحرة عليه بعد التشاور .
١٢٥	ما ذكره السحرة لدفع هذا الخطر .
١٢٧	تخيير موسى بين أن يلقى أو يلقى السحرة .
١٢٨	ما حشا به السحرة عصيهم .
١٢٩	لا يفلح الساحر حيث أتى .
١٣٠	ما قاله فرعون للسحرة مهددا لهم .
١٣٢	أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء بررة .
١٣٣	إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب العابر .

الصفحة	المبحث
١٣٥	نعمة الله على بنى إسرائيل .
١٣٩	أضل السامرى قومه بنى إسرائيل .
١٤٢	عتاب موسى هرون على سكوته على بنى إسرائيل .
١٤٤	كان موسى رجلا حديدا مجبولا على التصلب فى كل شىء .
١٤٥	مقالة موسى للسامرى وردة عليه .
١٤٦	خاف السامرى وهرب إلى البرية .
١٤٨	فى قصص الأنبياء الماضين عبرة وتسلية لرسولة صلى الله عليه وسلم .
١٤٩	يحشر المجرمون زرق الوجوه شاحب الألوان .
١٥١	قال المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم ما يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ؟
١٥٢	الشفاعة لا تنفع إلا بشروط .
١٥٣	تستسلم الخلائق للحى الذى لا يموت .
١٥٤	نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن العجلة بالقرآن قبل أن يستتم الوحى .
١٥٦	كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انفعنى بما علمتنى الخ .
١٥٩	نصح آدم وإرشاده .
١٦٠	وسوسة إبليس لآدم .
١٦١	من اتبع هدى الله فلا يضل ولا يشقى .
١٦٤	فى إهلاك من قبلهم من الأمم عبرة لهم .
١٦٥	رؤية الله سبحانه يوم القيامة .
١٦٩	طلب المشركين من النبى صلى الله عليه وسلم آية كآيات موسى وعيسى .
١٧٠	لا يعذب الله أمة إلا إذا أرسل إليها رسولا .